دراسات

الخيال العلمي في أدب الأطفال

تأليف : د. نوري جعفر

الخيال العلمي في أدب الأطفال

د. نوري جعفر: الخيال العلمي في ادب الاطفال
الطبعة الاولى. ١٩٨٥

الناشر: دار ثقافة الاطفال ص. ب ١٧١٤٦ بغداد العراق

سلسلة دراسات
تصدر عن قسم البحوث والنشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام ورئيس مجلس الادارة: فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة: فاروق يوسف

كلمة تمهيدية

بالنظر لتعذر الحصول على مصطلح باللغة العربية يعبّر بدقة ووضوح عن معنى المصطلح الانكليزي الذي يستخدم حديثاً في نمط جديد واسع الانتشار من القصص والروايات والكتب الآخذة بالتزايد مع مرور الزمن التي تنطوي على البحث في الخيال العلمي فقد آثرت أن أتحدث في هذا الكتاب الموجز الذي يكتب على ما أعلم في العراق – وربما في العالم العربي – لأول مرة باللغة العربية عما سميته تجوزاً ولغرض التبسيط والتوضيح «أدب قصص الخيال العلمي».

قصص بفتح القاف ومصطلح «Fiction» قصص باللغة الانكليزية وهي اللغة التي استقيت منها محتويات هذا الكتاب بحكم كوني لا أجيد غيرها من اللغات الأجنبية المعاصرة. قريب المعنى — كما يعرف ذلك المختصون بالأدب الانكليزي المحض — من وجوه متعددة وفي الأصل التاريخي بمصطلح «الرواية» Novel من ناحية ظاهرة الخيال المشتركة بينهما والابتعاد عن الواقع المحسوس مع أن جانب الخيال هذا من الممكن أن يتحول في المستقبل المنظور أو البعيد كله أو بعضه إلى واقع محسوس وذلك لأن ما يتصوره الإنسان الاعتيادي كأنه مستحيل الحدوث في

مجرى حياته اليومية لغرابته عنها قد لا يكون كذلك بالضرورة وفي كثير من الاحيان بالنسبة للعالم أو الأديب ذي الخيال الخصب أو المجنّح وذلك لأن خبرة الشخص الأعتيادي — حتى وان كان متعلّماً - محدودة المدى ونظرته إلى المستقبل قصيرة المدى أيضاً بحكم خبرته المحدودة التي لا يستطيع أن يتخطاها . بعكس العالم أو الأديب الواسع الخيال الذي يتحدّى القيود والسدود . ومع ذلك - وربما بسببه - فهناك فروق كبيرة وكثيرة بين المصطلحين المشار اليهما وبخاصة في استعمالها في الوقت الحاضر . مع العلم أن المصطلح الثاني أخذ بالانتشار والاستقرار أو التبلور في الأدب الانكليزي على ما نعلم منذ القرن الثامن عشر وبدأ المعنيون بالأدب يستخدمونه لتحقيق أغراض شتى تهذيبية «اخلاقية» وسياسية ودينية . وما يجري مجراها .

وما يصدق على العلاقة اللغوية والتاريخية بين المصطلحين المار ذكرهما «قصص» Fictiom و «رواية» Novel يصدق أيضاً والى حد بعيد - من وجوه متعددة - على الصلة بين المصطلح الأول «قصص» Fiction ومصطلح آخر شائع أيضاً في الأدب الانكليزي : «قصص الغرام» Romance وإن كان هذا المصطلح الأخير يحمل معنى المغامرات الغرامية العنيفة والغريبة النادرة التي تقوم بها شخصيات خيالية في الأعم الأغلب . ولكن الرابطة بينهما تكمن بنظرنا في كون الحوادث المروية في كلّ منهما خيالية :

اسطورية – والجانب الخيالي – الاسطوري : الخرافي – غير المعقول أحياناً – يربط مصطلح «قصص» Fiction بمصطلحات أخرى قريبة المعنى منه وإن اختلف موضوعها : منها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر «قصص خرافية» Fairy Tule و «خرافة» Myth «واسطورة» Fable و «اسطورة» Legend . ومع ذلك فإنّ الطابع المميز لموضوع كتابنا هذا كون محتوى الخيال القصصي – الذي هو جوهره – نابعاً في الأصل من العلم بهذا الشكل أو ذاك ومرتبطاً به ارتباطاً عضوياً أو عارضاً بنظر اصحاب الاختصاص في جميع الأحوال كما سنرى بعد قليل . أما الظواهر الأخرى التي تشير اليها المصطلحات الأخرى المار ذكرها فليست بذات صلة بالعلم من قريب أو بعيد : العلم النظري البحث أو منجزاته التكنولوجية التي يتخذها المختصون في أدب قصص الخيال العلمي أدوات أو وسائل للانتقال خيالياً في أرجاء الكون الرهيب الواسع الأرجاء لأنّ محتوى المصطلحات الأخرى يقع بعد التحليل الدقيق في صميم تاريخ علم الاجناس البشرية وعلم الاجتماع التاريخي ومع ذلك فإنّ القصص – في الحالتين (قصص الخيال العلمي والقصص الخيالية الأخرى) تشترك في صفة عامة هي أنها اسطورية أو وهمية متخيلة محبوكة أو منسوجة : بمعنى أنها ليست حقيقة أو تاريخية أو واقعية (وان كانت كما ذكرنا ممكنة الحدوث وقابلة للتصديق) في حالة قصص

الخيال العلمي بالدرجة الأولى والأهم لكون محتواها أو مضمونها ملتصقاً بمعطيات العلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية المعاصرة لاسيما الفيزياء وعلم الفلك من ناحية ومستمداً في جذوره العميقة بشكل أو بآخر من هذا التقدم المذهل الذي حصل في مجال العلوم الطبيعية الأساسية ومنجزاتها العملية التطبيقية. كما أن الخيال الذي فيها تختلف خصائصه - من وجهة نظر علم النفس الحديث- عن الخيال العابث أو الشرود: فهو بالتعبير السايكولوجي الدقيق Imagination «خيال مبدع أو اصيل أو مبتكر أو خلاق في حين أن نقيضه: خيال عابث وهمي: Fantasy والكتاب أو الأدباء والعلماء لاسيما الفيزيائيين الذين يشتغلون في الوقت الحاضر في حقل «قصص الخيال العلمي» يتصفون بخيال واسع المدى الى درجة التعجيز وبثروة لغوية ملحوظة وبمعطيات علمية وأدبية كبيرة وكثيرة: أي أنهم فئة خاصة من العلماء والأدباء وهذا هو الذي يميزهم عن غيرهم من المشتغلين بالأدب - وهم كثيرون - ولكنهم ليسوا أدباء بالمعنى الدقيق من وجهة نظرنا. كما يميزهم أيضاً في الوقت نفسه عن المشتغلين بالعلم وهم كثيرون من حملة الشهادات العالية ولكنهم ليسوا علماء أو فيزيائيين بالمعنى الدقيق. يضاف الى ذلك ولا يقلّ أهمية عنه أن المشتغلين بأدب قصص الخيال العلمي لا يعبّرون فقط من منجزات العلم الطبيعي النظري والتكنولوجي المعاصر وأنّما

هم يسبقونها بخيالهم احيانا بتوقعاتهم أو تنبؤاتهم التي من الممكن أن تصبح واقعاً ملموساً في المستقبل المنظور.

وأدب «قصص الخيال العلمي» هذا يجمع بين أو يوحد الأدب (الذي له قوانينه الخاصة الفنية الجمالية التي تربطه بالفن بما فيه الشعر من ناحية) وبين العلم (الذي له قوانينه الموضوعية المعروفة لاسيما الفيزياء من ناحية ثانية) وبين الخيال (الذي له هو الآخر قوانينه الخاصة المستندة في الأصل الى أو المستمدة من علم النفس) ومن هذه الزاوية يمكن أن يقال إن قصص الخيال العلمي تدخل في باب الأدب المحض من بعض الوجوه وتدخل في باب العلم الصرف من وجوه أخرى. وهو في الوقت نفسه «لكونه خيالاً نقياً» يمس علم النفس في الصميم من ناحية القوانين السايكولوجية التي تتحكم في الخيال من حيث كونه ظاهرة سايكولوجية ملحوظة ومألوفة وطريفة في آن واحد. وهذا هو الذي يجعل الأدباء والعلماء الطبيعيين وعلماء النفس معنيين جميعاً به كلّ من زاويته الخاصة ومساهمين أيضاً في انتاجه بهذا الشكل أو ذاك. والملاحظ أن كتاب أدب قصص الخيال العلمي وبخاصة البارزون منهم كثيراً ما يجمع أحدهم بين الجوانب الثلاثة المشار اليها: كأن يكون هو نفسه أديباً بارزاً أحياناً وعالماً طبيعياً بارزاً أيضاً «فيزيائياً في الأعم الأغلب» وله المام واسع وعميق بعلم النفس. والأسماء اللامعة التي سيأتي ذكرها أمثلة ناصعة تثبت

وجاهة ماذهبنا اليه . حيث تناوله علماء مختصون بالدرجة الأولى والأهم ومن بينهم فئة لامعة من حملة جائزة نوبل .

وبالنظر للاهتمام الذي تبديه دار ثقافة الأطفال في تنمية الوعي العلمي لدى الاطفال منذ سنٍّ مبكرة بجميع الوسائل الثقافية «الاعلامية» المتاحة ولتعاوني الوثيق مع الزملاء العاملين في الدار منذ سنوات عديدة فقد آثرت أن اضع هذا الكتاب الموجز — الذي يكتب لأول مرة باللغة العربية على ما أعلم – تحت تصرف دار ثقافة الاطفال لنشره ليكون أداة فكرية لجلب انتباه القراء نحو هذا الموضوع المهم وليكون معيناً للمشرفين على تربية الاطفال في المنزل والمدرسة واجهزة الاعلام والثقافة وفي منظمة الطلائع التي يسرني أيضاً أن اكون وثيق الصلة بها .

ولعلّ الوقت يتسع في المستقبل غير البعيد لوضع كتاب آخر يحتوي على قصص الخيال العلمي للاطفال بالتعاون مع من يجيد فنَّ الكتابة للأطفال من الزملاء العاملين في دار ثقافة الاطفال أو من يرشحونهم : بعضها مترجم و بعض آخر منتقى من كتاب الف ليلة وليلة الرائع .

وكتابي الموجز هذا - الذي بذلت في تأليفه جهداً كبيراً هو بنظري محاولة أولى «للكتابة في هذا الموضوع الجديد القديم : السهل الممتنع » تمهد الى محاولات أرجو أن تكون أعمق وأوفى .

بغداد ١٩٨٤/٧/٢٤

د . نوري جعفر

بين العلم والادب

لقد مرّ بنا القول إنّ أدب قصص الخيال العلمي يجمع أو يوحد بين الأدب والعلم - وهما كما يبدو لأول وهلة - على طرفي نقيض من حيث المحتوى ومن ناحية أسلوب البحث والقوانين أو المبادئ النظرية العامة . كما مرّ بنا القول أيضاً إن المشتغلين في أدب قصص الخيال العلمي هم أدباء من نمط خاص وعلماء من نمط خاص أيضاً أو أنهم - بعبارة أخرى - أدباء ذوو نزعة علمية وخيال علمي من جهة وعلماء ذوو نزعة أدبية وخيال أدبي من ناحية أخرى . وتلك هي ميزتهم الاصيلة المشتركة .

ونودّ الآن ان نتحدث باقصى حد من الايجاز والتركيز عن العلاقة بين العلم والأدب (والفن عموما : لأن الأدب بعد التحليل الدقيق هو نمط من انماط الفن : هو فن الكلمة بعبارة أدق) ولكلّ منهما قوانينه الخاصة به ونظرته إلى الامور واسلوبه في التعبير . وكلّ منهما ضروري للحياة ولا بد أن يلمّ العالم بالأدب (حتى وإن لم يكن من المشتغلين في أدب قصص الخيال العلمي) وأن يُلِمّ الأديب بالعلم (في خطوطه العريضة أو معالمه الكبرى بالأقل) حتى وإن لم يكن من المشتغلين بأدب قصص الخيال العلمي . فالعلم والأدب طرفا ثقافة اجتماعية واحدة . ولا افضلية بنظرنا لأحدهما على الآخر . وهما كالجوارح - اعضاء الحس - بالنسبة للإنسان . ومن هذه الزاوية فإننا ندعو الأدباء عندنا إلى

الاطلاع على مسيرة العلم الحديث واستيعاب ملامحه الكبرى . كما ندعو العلماء الى الاطلاع على مسيرة الأدب والألمام بمعالمه الكبرى . كما ندعو المعنيين بشؤون التربية والتعليم الى مراعاة ذلك في مناهج الدراسة وفي اعداد المعلمين .

يتحدث كثير من المعنيين بالشؤون الثقافية عموماً وبالقضايا التربوية على وجه الخصوص أحاديث كثيرة في الوقت الحاضر وفي كثير من الاقطار عن ضرورة القيام بإجراء تبدلات واسعة المدى وعميقة الغور في نظام التعليم السائد وفي العملية التربوية ذاتها لصالح الرياضيات والعلوم الطبيعية الأخرى النظرية والتكنولوجية . واحاديثهم معقولة ومقبولة من بعض الوجوه في ضوء التقدم العلمي النظري والتكنولوجي الراهن .

وحاجة الجيل الجديد الى التزود بالمعرفة العلمية النظرية والتكنولوجية الحديثة لا تقلّ ضرورة والحاحا عن حاجة المجتمع نفسه للعلم النظري والتكنولوجي لضمان بقائه وتقدمه الحضاري .

ومع ذلك وربما بسببه فإنّ حاجة الجيل الجديد الى التزود بالأدب والفن (وبالعلوم الإنسانية أيضاً) ضرورة ملحة أيضاً . فلا بد له من الالمام الواسع العميق بتاريخ أمته وبخاصة جوانبه التقدمية ولا بد أيضاً من المامه بلغته وأدبها - وبخاصة جوانبها التقدمية - وبالجوانب التقدمية في أدب الشعوب الأخرى ليصبح ملماً بقضايا عصره ومجتمعه وملتزماً بها وعارفاً بماله من حقوق فلا

يتخطاها وما عليه من التزامات فلا يتقاعس عن انجازها وليحصل أيضا على تربية شخصية متوازنة ومتكاملة ومتعددة الجوانب. وهذا يعني - بعبارة أخرى - أنّ التقدم العلمي النظري والتكنولوجي المعاصر يستلزم - بنظرنا - اتخاذ اجراءات تربوية ايجابية وفعالة كبيرة وكثيرة لتنشئة جيل مزود بالمعرفة العلمية النظرية والتكنولوجية وبالعلوم الإنسانية وبالأدب والفن لمواكبة سير الحضارة في مرحلتها الراهنة.

يتضح إذن أنّ الاهتمام بالعلوم الطبيعية النظرية والتكنولوجية ينبغي الّا يغض من منزلة الأدب والفن في حياة الإنسان أو ان يجعل مكانتهما ثانوية الاهمية بالموازنة بالعلوم الطبيعية التي تبدو لأول وهلة كأنها تقع وهما على طرفي نقيض من ناحية اسلوب البحث أو نمط التفكير ومن ناحية المحتوى أو المضمون. في حين أنّ جميع فروع المعرفة ابتداءاً من الرياضيات وانتهاءاً بالرسم والموسيقى هي بنظرنا عناصر أو اطراف متكاملة في ثقافة إنسانية واحدة. عندئذ لا ينعزل العلم الذي هو اساس فهم الطبيعة وقوانينها فهماً موضوعياً تمهيداً لتسخيرها لمصلحة الإنسان وبناء حضارته المادية عن الفن - بما فيه الأدب : فن الكلمة - الذي هو سجل مشاعر الإنسان ازاء الطبيعة والمجتمع وبناء الحضارة الروحية بل يتمّم أحدهما الآخر ويثريه. يضاف الى ذلك ولا يقل أثراً عنه أنّ الفن - إذا أحسن تدريسه وتجسدت جوانبه الايجابية

التقدمية - فإنَّه يصبح المجال الثقافي الأكثر ملاءمة لتكوين الإنسان الجديد. وهنا تتضح الرابطة العضوية بين الفن والعلم. والرابطة العضوية هذه تأخذ شكلين مختلفين مع ترابطهما: يبدو الأول منهما في اسلوب البحث أو نمط التفكير المتبع في كلّ منهما وفي محتواه أو مضمونه. ويتجلى الاخر في كون العلم النظري والتكنولوجي دون أناس بمشاعر إنسانية يستثمرونها لخير الإنسان قد لا يكون في صالح المجتمع ولا يؤدي الى تقدمه في المدى الطويل في جميع الاحوال. ومن الجهة الثانية فإن ذوي المشاعر الإنسانية الرقيقة عاجزون عن المساهمة الايجابية الفعالة في تقدم المجتمع دون الاستعانة بالعلم النظري وبمنجزاته التكنولوجية لأن مشاعرهم الفضفاضة تلك تبقى في اطار الاماني الطيبة والاحلام اللذيذة، فكلاهما إذن ضروريان لتقدم المجتمع: هذا بمعطياته النظرية ونمط تفكيره وهذا بأناقته وصقله مشاعر الناس وتحفيزهم أو استنهاض هممهم للعمل المخلص الجاد. يضاف الى ذلك ولا يقل أثراً عنه أنّ الفنّ أداة ثقافية فعّالة لتطوير قدرات الإنسان العقلية لا سيما التفكير والخيال.

من طريف ما يروى عن آنشتين (١٨٧٠ - ١٩٥٥) - في هذا الصدد - إنّه قال: لقد تعلمت من الأديب الروسي د ستويفسكي (١٨٢٢ - ١٨٨١) في مجال الرياضيات أكثر مما

تعلمته من نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) وكوس (١٧٧١ - ١٨٥٥) . وفي هذا القول الذي يبدو غريباً لأول وهلة ومبالغاً فيه تلميح ضمني لموقع الخيال الفني في الفكر العلمي الرياضي . وهذا هو الذي راود ذهن آنشتين على ما يبدو عندما أشار في إحدى لمحاته العبقرية الأخرى الى أنّ (الفكر العلمي ينطوي دائما على عنصر شعري) كما أنّه ذكر أيضا في إحدى المناسبات أنّ موسيقى باخ (١٦٨٥ - ١٧٥٠) تذكره دائما بالمنطق الرياضي . وعالم فيزيائي فذّ آخر معاصر هو نيلز بوهر (١٨٨٥ - ١٩٦٢) تطرق أيضا الى العلاقة بين العلم والفن (لا سيما الموسيقى) وأطرى على الموسيقى من حيث قدرتها على التحليق بالتفكير العلمي النظري الى مستوى أعلى من الاناقة والانسجام ومن ناحية قدرتها على جعل الخيال العلمي النظري المجنّح يسبح في اجواء رحيبة يتعذّر تحديد مداها أو تحليل كثير منها من الناحية العلمية .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول إنَّ هناك علاقة عضوية وأثراً متبادلاً بين العلم (الطبيعي : النظري والتكنولوجي) من جهة وبين الفن (بما فيه الأدب : الذي هو فن الكلمة كما ذكرنا) من جهة أخرى . كما أنّ بينهما فروقاً أيُضاً أو اختلافات جوهرية واضحة وعرضية قد تصل الى درجة التباين في كثير من الاحيان : فجوهر العلم أو طابعه العام المشترك بين فروعه المتعددة يتجلّى في

نزعته نحو ادراك الطبيعة (الجامدة والحية بما فيها المجتمع) ادراكاً موضوعياً دقيقاً واميناً بعيداً عن المشاعر أو الانفعالات في حين أنّ الفن (بما فيه الأدب بالطبع) يجنح نحو ادراك الطبيعة (الجامدة والحية بما فيها المجتمع) ادراكاً ذاتياً فنياً جمالياً ونحو التعبير عنها تعبيراً فنياً جمالياً أيضاً مشبعاً بالمشاعر والتأملات الخاصة وبالمطامح والأماني. والعلم من الجهة الثانية يسير وفق معطيات نظرية وقوانين أو مبادئ مستقرة لا يجوز تخطيها أو الخروج عليها – في هذه الفترة التأريخية أو تلك – في حين أنّ الفن والأدب بالطبع) يسير بأتجاه آخر (وبخاصة الاصيل منه) فيتأثر من ناحية محتواه بحالات فردية سايكولوجية ذاتية خاصة يعيشها صاحبها في هذه اللحظة أو تلك: أي أنّ العالم ينظر الى الأشياء بعينه البايولوجية ويسمع أصواتها بأذنه البايولوجية أيضاً في حين أنّ الأديب الفنان يراها بعينه الفنية الجمالية ويسمع انغامها ولا نقول اصواتها – بأذنه الفنية المرهفة. وهذا يعني بعبارة أخرى – أنّ المبادئ العلمية والنظريات والقوانين ظواهر موضوعية مسلّم بها – من الناحية النسبية بالأقلّ – أما نظيراتها في الفن فإنه وإن وحدت قواعد عامة موضوعية إلا أن الطابع الذاتي للأديب الفنان الاصيل يتخطاها في كثير من الاحيان. ومن الجهة الثانية فإن لغة العلم دقيقة واضحة لا تحتمل أكثر من تفسير واحد. في حين أن لغة الأدب لغة فنية مترفة تتصف بالابهام أو الغموض الناجم عن

الاستعارة والمجاز والكناية المعبر عنها بالالفاظ والالوان (في حالة الرسم) او الانغام (في حالة الموسيقى) . وهذا هو الذي يجعل اللوحة الفنية الانيقة أو التمثال الرائع أو القصيدة المؤثرة أو النص الأدبي الرصين أو القطعة الموسيقية الفذة تحتمل أكثر من معنى وتحتوي على أكثر من استنباط واحد . بعكس النظرية العلمية أو المعادلة الرياضية : لغة الفن تخاطب المشاعر أو الانفعالات أو العواطف ولغة العلم تخاطب العقل دون سواه .

وفرق جوهري آخر بين العلم والأدب (بما فيه الفن) هو أن النظريات العلمية كثيراً ما تصبح بالية ومغلوطة أو ناقصة بفعل التطور العلمي اللاحق باكتشاف حقائق علمية جديدة لا يمكن تفسيرها تفسيراً علمياً في اطار النظريات العلمية الشائعة . الأمر الذي يستلزم تعديل تلك النظريات الشائعة وحتى الغائها أو تحديد مجال عملها . أما الأدب الاصيل (بما فيه الفن بالطبع) فإنّه يسير باتجاه مختلف يتحدى الزمان والمكان . ولهذا نجد الفن القديم (والأدب الكلاسيكي) يعيش جنباً الى جنب مع نظيره (أو حفيده) الجديد . وقد يبزّه في الروعة والجمال مع احتفاظه برونقه عبر الاجيال المتلاحقة .

وفرق آخر بينهما هو أن الادب لا سيما الشعر مشبع (كما ذكرنا) بالمجاز والمبالغة (الى درجة الاغراق احيانا) وبالتورية والكناية بعكس العلم الذي يفسده ذلك عند استخدامه فيه أو

عند استعماله مصطلحاً غامضاً يثير الألتباس لأول وهلة وقبل أن يعترف به ويتبناه جميع المشتغلين في العلم أو في أحد فروعه بالأقل .

توصل كثير من المعنيّن بدراسة العلاقة بين الفن والعلم – عند الموازنة بينهما – الى استنباطات كثيرة (غير دقيقة بنظرنا) من ناحية طبيعة الانتاج العلمي والانتاج الفني ومن حيث الخصائص المميزة لكلّ منهما . وهي كثيرة لا يعنينا أمرها هنا لعلّ أبرزها – بقدر ما يتعلق الأمر بهذه الدراسة – وأكثرها انتشاراً قولهم مثلاً : إن العلم ذو نتائج عملية تطبيقية تحصل ان عاجلاً او اجلاً بشكل مقصود احياناً وبصورة عرضية احياناً أخرى . في حين أن الفن بنظرهم خلو من نتائج تطبيقية لاحقة خارجة عن طبيعته . وهذا الرأي أدى – بشكله المتطرف – الى نشوء نظرية (الفن من أجل الفن) . معنى هذا أن للعلم اغراضاً أخرى خارج اطاره النظري . بينما غرض الفن ذاتي جمالي كامن في طبيعته . وقد أدى هذا الموقف بالنسبة للفن عموماً وللأدب لاسيما الشعر (وبشكله المتطرف) الى نشوء النزعة المسماة (التكسب بالأدب أو الشعر) أي استخدامهما للحصول على ربح مادي يفسد طبيعتهما الفنية النقية كما يحصل ذلك في المدح والهجاء بالشكل المعروف .

إنّ هذا الرأي وان كان معقولاً ومقبولاً من بعض الوجوه وفي بعض الاحيان (ولدى بعض الأدباء والشعراء وفي بعض

المجتمعات، وفي فترات تاريخية معينة) إلا أنه على ما نعتقد ليس صحيحاً على هذا الوجه من وجوه الاطلاق. وذلك : لأن العلم النظري – في أرفع مستوياته الفكرية التجريدية (في الرياضيات مثلاً : نظرية المجاميع والتبولوجيا) يقترب من الفن الى درجة الانصهار أحياناً. كما أن الفن بدوره ليس منعزلاً انعزالاً تاماً ومطلقاً وفي جميع الاحوال عن الحياة الاجتماعية وعن تحفيز الإنسان لمغالبة الطبيعة من ناحية كون الفن في أضعف الاحتمالات عامل حفز وتنشيط للسيطرة على الطبيعة. وإذا كان العلم يتيح للإنسان الأدوات التكنولوجية لمغالبة الطبيعة فإن الفن يمده بالادوات السايكولوجية ويكشف له في الوقت نفسه مواطن الجمال والاناقة في الطبيعة. واستنباط آخر ينحو ذلك المنحى في الاساس يتضح بقولهم مثلاً : إن العلم يعبر تعبيراً موضوعياً دقيقاً وأميناً عن الطبيعة ويتعامل معها تعاملاً موضوعياً بالرموز والمعادلات الرياضية نمط التفكير المنطقي. في حين أن الفن يتجه بنظرهم اتجاهاً معاكساً ويستند الى الصور الذهنية الحسية الانيقة والى الخيال : يدركها على تلك الصورة ويتعامل معها أيضاً تعبيراً حسياً بلغة الأدب المترفة المفعمة بالمجاز والاستعارة والكناية وعن طريق الالواح الفنية في الرسم أو التماثيل وفي الانغام الموسيقية. وهذا القول مردود أيضاً على هذا الوجه من وجوه الاطلاق : ففي العلم والفن خيال ومنطق وفيهما معاً تعبير عن الطبيعة بالصور

الحسية الذهنية وبالرموز مع اختلاف نسبي بينهما كميّ لا نوعي .

يتضح إذن أن هناك أوجه شبه وأوجه اختلاف بين العلم والفن . وأنهما معاً يعبران عن الطبيعة كلّ بطريقته الخاصة . وأنّ الإنسان يحتاج الى كلّ منهما كما سلف أن بيّنا .

أدب قصص الخيال العلمي

أ : أهمية أدب قصص الخيال العلمي

يحتلّ أدب قصص الخيال العلمي مكاناً مرموقاً في المجتمع المتقدم الحديث لدى علماء الطبيعة وبخاصة علماء الرياضيات والفيزياء ولدى الأدباء وعلماء النفس ولدى المعنيّين بشؤون التربية والتعليم وبخاصة بالنسبة للأطفال في الصفوف الثلاثة الأخيرة من مرحلةالتعليم الابتدائي :

لدى الاطفال – البنين والبنات – الذين تتراوح اعمارهم بين السنة العاشرة والسنة الثانية عشرة من العمر. وقد بدأ هذا النمط الجديد والمثير بشكله المتبلور في هذا القرن الذي نعيش فيه بفعل هذا التطور المذهل والسريع الذي حصل في الرياضيات العالية وفي العلوم الطبيعية الاساسية لاسيما الفيزياء وعلم الفلك وفي منجزات العلوم التكنولوجية. مع العلم أن بواكيره تعود في اصلها التاريخي على ما نعلم – إلى فئة من أبرز أدباء العصر يأتي في مقدمتهم «ايج جي ويلز» الأديب البريطاني الذائع الصيت :

وبما أنّ أدب قصص الخيال العلمي يقترن في أصله التاريخي بآسم ايج جي ويلز بأجماع اراء المعنيّين به فقد آثرنا التحدث بإيجاز غير مخل عن مساهمته الرائدة في أدب الخيال العلمي.

ولابد من الاشارة في البداية إلى أنّ اهتمام ايج جي ويلز تحوّل

من العلوم الطبيعية إلى الأدب منذ فترة شبابه الأولى : أي أنّه جاء إلى الأدب عن طريق العلم : أو بعقلية علمية وثقافة علمية . كما أن ايج جي ويلز كان يسعى دائماً سعياً حثيثاً - كالملهوف - إلى المعرفة وسعة الافق (في العلم والأدب على حد سواء) . ولم يبقَ حبيس العلم أو مقتصراً عليه . غير أنه - في الوقت نفسه - لم يهجر العلم - عندما تحول إلى الأدب حتى بعد تجاوزه حدود العلم ونظر إلى العلم نظرة شعرية - إذا جاز هذا التعبير - وكان أيضاً مهيئاً من الناحية السايكولوجية بالذات لولوج حقل الأدب منذ تسعينيات القرن الماضي وهو في ريعان الشباب وذلك عن طريق دراساته الخاصة والمامه الواسع العميق بمنجزات العلم في ذلك الزمان وبالافكار الاجتماعية التقدمية التي بدأت بواكيرها بالظهور آنذاك ولاحظ أيضاً بثاقب رأيه الطبيعة الموضوعية للتقدم الاجتماعي وآمن به أيضاً .

لقد كان ايج جي ويلز مفتوناً بالمستقبل الكامن في الحاضر الذي يعيش فيه وفي اتجاهات سيره العام . أما رواياته المخصصة لقصص الخيال العلمي فكانت في جوهرها مقالات ساخرة تناول فيها كلّ شيء مزعج بنظره شاهده في العالم الذي عاش فيه في فترة تاريخية معينة على الصعيدين المحلّي والعالمي على حد سواء . وقد حوّل بعضه بخياله الواسع إلى ما هو أكثر ازعاجاً منه : هوّلَه بعبارة أخرى فكلّ قبيح في نظره من الناحية الواقعية المحسوسة

تحول عنده في قصص الخيال العلمي إلى ما هو أقبح منه . وكلّ بليدٍ هنا أصبح أكثر بلادة هناك وكلّ سخيف على الأرض أصبح أكثر سخفاً على سطح القمر أو في العوالم الأخرى . وهكذا . .

يتضح إذن أن ايج جي ويلز تحدّث عن الحاضر بلغة المستقبل أو أنّه نظر إلى الحاضر بعين المستقبل وجسّد جوانبه السلبية بمبالغاته الأدبية الطريفة . وهذه الناحية بالذات من نواحي مؤلفات ايج جي ويلز (كتبه : مقالاته : قصصه : محاضراته) في الخيال العلمي بالذات هي بنظر مؤرخيه الأكثر أهمية من توقّعاته أو تنبؤاته عن تطور العلم والتكنولوجية والنظام السياسي والعلاقات الاجتماعية التي أراد أن ينقلها من ذهنه إلى القراء .

لقد كانت باكورة اعماله الأدبية في مجال قصص الخيال العلمي التي صنفها وهو في ريعان الشباب . نقل فئة من رواد الفضاء الخياليين نقلاً خيالياً بما سمّاه «الماكنة الزمنية» أو «المركبة الزمنية» إلى القمر لسبر غوره وللكشف عن اسراره أو خباياه : فرواد فضائه في صعودهم إلى القمر خيالياً يمتطون صهوة «المركبة الزمنية» التي ابتدعها والتي بإمكانها أيضاً نقل الركاب إلى أيّ مكانٍ آخر في هذا الكون الرهيب الرحيب الذي لا تنتهي أرجاؤه عند حد . «وماكنة الزمن» هذه عندما تنطلق بركابها من سطح الأرض فإنّهم يرون أنّ الزمن يتسارع بشكلٍ مذهل بحيث أنّ قروناً بكاملها تنطوي «طي السجل للكتب» بلحظات . ولكن

الركاب أو المسافرين يبقون طوال هذه الرحلة الطويلة الشيقة ملتصقين بجدران المركبة الزمنية ولا يبرحونها . ثم تتداعى تلك الجدران وتنبت بدلها الأشجار الممرعة التي سرعان ما تختفي هي الأخرى لتحلّ محلّها العمارات الشاهقة (ثقافة الاسمنت بتعبير زميلنا الأديب اللامع : فاروق سلوم) التي تتهاوى بدورها . وهكذا دواليك . كما أنّ الشمس التي تتهادى في الفضاء جاء وصفها في الشعر العربي الأنيق . ومعذرة من هذا الاستطراد الممتع (ولكنه خيال) .

أقول : يصف ايج جي ويلز الشمس في حركتها الدائبة الملحوظة كأنها تطوي الأفق بلمحة عين أو بلحظات . كما أنّ ركاب «ماكنة الزمن» يلاحظون سيره بشكل آخر لاعبر العلامات الأرضية المعتادة .

ومن هذه الزاوية فإنّ بمستطاعهم السفر إلى أيّة بقعة في المستقبل وفي أيّة لحظةٍ . وهم يشعرون كأنهم جزءٌ لا يتجزأ من منظومة كونية هائلة الحجم والتعقيد . كما أنّهم أثناء الانتقال الزماني المكاني المذهل يطلعون على عوالم مجهولة ويكتشفون عن اسرار كامنة وبذلك يتسع أفقهم وتتفتح أعينهم امكانيات هائلة للرؤية البعيدة جداً في الزمان والمكان .

لقد كانت رواية «الماكنة الزمانية» ظفراً لامعاً حقّقه خيال الكاتب الساخر الشاب المتبرم بأوضاع عصره ومجتمعه . وقد

وقف النقاد من :شر هذه الرواية الطريفة عام ١٨٩٥ ولم يبلغ العشرين من عمره موقف الإعجاب والاستحسان بأجماع الآراء تقريباً.

ثم انتشر أدب قصص الخيال العلمي - بعد ذلك وعلى اساسه - انتشاراً سريعاً في عموم القارة الأوربية وفي الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبخاصةٍ بعد الحرب العالمية الثانية (منذ ١٩٤٥) كما تعدّدت موضوعاته وتشعّبت أغراضه وانتقل من مجال الأدباء ذوي النزعة العلمية - كما كانت الحال مثلاً لدي ايج جي ويلز - إلى مجال العلوم الطبيعية والرياضية كما سنرى بعد قليل.

ب : خصائص أدب قصص الخيال العلمي

١ : الفرق بين أدب قصص الخيال العلمي وبين أدب الاساطير والأدب الخيالي الاجتماعي

٢ : طبيعة أدب قصص الخيال العلمي

: الفرق بين قصص أدب الخيال العلمي وبين أدب الاساطير والأدب الخيالي الاجتماعي

مما لا شك فيه أنّ لأدب قصص الخيال العلمي صلة وثيقة بأنماطٍ أخرى من الأدب يعالج كلّ منها (بطريقته الخاصة ومن زاوية معينة لا علاقة لها بالعلم من قريب أو بعيد) قضايا المجتمع الذي يعيش فيه وقضايا المجتمع البشري بأسره في هذه الفترة

التاريخية أو تلك . وهذا يعني - بعبارة أخرى - أنّ أدب قصص الخيال العلمي ينفرد وحده بمزايا خاصة به سنذكرها بعد قليل . ومن الجهة الثانية فإنّ لأدب قصص الخيال العلمي ارتباطاً وثيقاً أيضاً بآراء بعض الفلاسفة واصحاب الرأي من المصلحين الاجتماعيين ابتداءاً من افلاطون (في الجمهورية والقوانين) والفارابي (في آراء أهل المدينة الفاضلة) واصحاب الرسائل الطوبائية ودانتي (في الكوميديا الإلهية) والمعري (في رسالة الغفران) والهمذاني والحريري (في المقامات) . ولأدب قصص الخيال العلمي علاقة أيضاً بقصص ابن المقفع (في كليلة ودمنة) وبقصص لافونتين التهذيبية المعروفة وله صلة وثيقة أيضاً بكتاب ألف ليلة وليلة . والصلة المشار إليها نابعة في الأصل على ما نرى من الجانب الخيالي الذي يجمع أو يوحّد بين أدب قصص الخيال العلمي وبين تلك الانماط المتعدّدة من الأدب القصصي الذي لاصلة له بالعلم كما ذكرنا والذي يتركز موضوعه أو محتواه بالدرجة الأولى والأهم في تصوير نماذج أو أنماط من العلاقات الاجتماعية (المثلى : بنظرهم) المغايرة للواقع المحسوس (التعيس : بنظرهم) . مع العلم أنّ بعض تلك الانماط الأدبية الاصلاحية يستخدم الرموز الاجتماعية للتعبير عن آرائه في شجب مساوئ المجتمع واقتراح البديل (كما فعل الهمذاني والحريري مثلاً في المقامات) . وأنّ بعض الانماط الأخرى يضع ما يريد أن يقوله على ألسنة

الحيوانات (كما هي الحال عند ابن المقفع ولافونتين) . في حين أن بعضاً آخر يعترض بشكل لبق وبكياسة على بعض المبادئ الاجتماعية التي ينظر إليها الإنسان الاعتيادي نظرة إجلال أو تقديس ليتفادى الوقوع في مآزق حرجة كما هي الحال عند دانتي وأبي العلاء المعري أو أنه يتخيل نظاماً اجتماعياً أمثل بديلاً للسائد كما هي الحال عند افلاطون والفارابي ولدى عموم اصحاب الآراء الطوبائية . أو الاقتصار – في بعض الاحيان – على مجرد سرد قصص أو وقائع خيالية متناثرة لا يجمعها جامع كما هي الحال في كتاب ألف ليلة وليلة . وهذه جميعاً لا يعنينا أمرها هنا رغم أهميتها وطرافتها وكونها رائدة ومعقولة من بعض الوجوه في ضوء قرينتها التاريخية وبدلاً من ذلك نود أن نتحدث تفادياً للاستطراد الذي لا مسوّغ له بنظرنا (بأقصى حدّ من التركيز والايجاز) عن العلاقة الوطيدة بين أدب قصص الخيال العلمي (من ناحية بعض جوانبه الاجتماعية الاصلاحية) وبين الأدب الواقعي الذي انتشر في الغرب بشكله المتبلور في اعقاب الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر في انكلترا بالذات مهد الثورة الصناعية : حيث كشف الأدباء البارزون بأسلوبهم الأدبي الطريف وبشكل لا يخلو من المبالغة عن تناقضات المجتمع «الجديد» اثناء انتقاله من عهد الاقطاع المنهار إلى الرأسمالية «الصاعدة» آنذاك . ولعلّ جارلس دكنز كان أبرزهم وأكثرهم صراحة وحماسة . فقد عرض هذا

الأديب اللامع مختلف جوانب الحياة الاجتماعية البريطانية في عهده لأقسى انواع النقد والاستهزاء : فوصف مثلاً بروعة فنية أماكن العمل الرديئة والميانم في روايته الذائعة الصيت : أولفرتوست . ولخص بمرارة وتهكّم نظام التعليم السائد في روايته . نيكولاس نيكلباي . وشرح ظاهرة الزواج وحياة الأسرة التي تبرم بها في روايته : دمبي ونجله . واوضح فقدان العدالة الاجتماعية في روايته «اسرة بلبك» واسهب في وصف جهاز القمع الحكومي في روايته : «دورت الصغير» وفي روايته الأخرى : عن السجون وفي روايته عن نظام المعامل المسماة أوقات عصيبة .

وقد سار على منواله كتّاب بريطانيون معاصرون يأتي في طليعتهم الديوس هكسلي «العالم الجديد الجريئ» وسنو في روايته «غرباء واخوان» . حيث رسما صوراً سايكولوجية عميقة ودقيقة لحياة المجتمع البريطاني المعاصر في جوانبها المتعددة وبفئاتها الاجتماعية المتنافرة بمن فيهم المثقفون ورؤساء الجامعات واساتذتها وكبار موظفي الدولة المدنيين والعسكريين والساسة ومواقفهم العامة والخاصة . كما أنّ سنو عبّر في روايته «الناس الجدد» عن مآسي القنبلة النووية في هيروشيما . وما يصدق على دكنز وسنو في بريطانيا يصدق أيضاً على همنكوي في الولايات المتحدة سواء أكان ذلك في قصصه القصيرة : «الرتل الخامس و «ثلوج كليما نجارو» أم في رواياته المسهبة : «المالكون والمحرومون» و «ولمن يقرع الجرس» ؟

طبيعة أدب قصص الخيال العلمي

- ١ -

يتصف أدب قصص الخيال العلمي (ولا نقول ينفرد أو يتميّز لأنّه يشارك فن الرواية الاعتيادية من بعض الوجوه) بصفتين متلاحمتين هما : - من ناحية المحتوى - : الجانب السلبي الذي ينصب على نقد الجوانب السلبية الشائعة في المجتمع الحديث من جهة والجانب الايجابي المتمثل في البديل الأمثل الذي يتخيله الكاتب من جهة أخرى . كما يتصف أدب قصص الخيال العلمي بصفتين أخريين من ناحية الأسلوب (يشاركهما بالطبع فيه فن الرواية الاعتيادية) هما : الوصف الموضوعي الواقعي للأحداث (مع المبالغات الأدبية المعروفة) والجانب الرومانتيكي (الخيالي : الجمالي) أيضاً وفي آن واحد . وهذا يعني - بعبارة أخرى - أنَّ أدب قصص الخيال العلمي مستمد من حيث محتواه الاجتماعي - من الواقع المحسوس الذي يعيش فيه الكاتب : وهذا هو جوهره . ولكن الواقع هذا ليس جامداً أو خامداً (كما هي الحال في الأدب الواقعي المعروف) بل هو واقع ديناميكي صاعد متطور بصورة عديمة الانقطاع . وهو يمرّ اثناء حركته الصاعدة إلى الأعلى والامام - بمراحل ثلاث متتابعة ومتبادلة الأثر هي : الماضي (الذي أصبح حاضراً) والحاضر (الذي سيكون مستقبلاً) والمستقبل (الذي كان حاضراً) منظوراً إلى ذلك كلّه من الناحية

الفنيه ا-لجمالية ومعبراً عنه بالأناقة الفنية . ومن هذه الزاوية فإنّ الرومانتيكية (الديناميكية) جزء لا يتجزأ من الواقعية في أدب قصص الخيال العلمي .

يتضح إذن أنّ الصور الأدبية الأنيقة التي نجدها في روايات كُتاب أدب قصص الخيال العلمي ذات المحتوى الاجتماعي هي في جوهرها تعبير عن العالم المحيط الاجتماعي والطبيعي . ولكنها في الوقت نفسه — ليست تعبيراً (أو انعكاساً Reflection) فوتوغرافياً نَسْخاً طبق الأصل : (كليشة) عنه . معنى هذا أن محتوى تلك الصور الفنية الجمالية مستمدّ في الأصل من الواقع الذي يؤلف الأديب بخياله المجنّح بين عناصره المتباعدة في الزمان والمكان ويعبّر عنها تعبيراً أنيقاً . والجانب الرومانتيكي في أدب قصص الخيال العلمي هو الذي يجعل صاحبه سابقاً لزمانه من ناحية تصوره للمستقبل الأفضل (الذي هو في جوهره ممكن التحقيق : ليس طوبائياً ولا ميتافيزيقياً بالمعنى الفلسفي المعروف) بل هو الحاضر الماثل للعيان تتجسد فيه الجوانب الايجابية الراهنة في حركتها الصاعدة المتطورة من جهة وتنتفي فيه الجوانب السلبية التي تعرقل مسيرته الظافرة . فالمستقبل — من هذه الزاوية — حاضر منتق ومؤجّل يكمن في رحم الحاضر الراهن . وهذا هو الذي يميز كتّاب أو أدباء قصص الخيال العلمي (في كتاباتهم ذات المحتوى الاجتماعي الذي سيأتي ذكر اسماء بعضهم بعد قليل) عن

الأدباء الواقعيين الآخرين الذي مرّ بنا ذكر بعض اسمائهم الذين يركزون اهتمامهم على وصف ما هو موجود بالفعل (أو ما هو واقع) بشكله الجامد (الستاتيكي) والذين يعتبرون المستقبل (ضمنياً) عالماً آخر جديداً قائماً في حد ذاته مازال معلّقاً في الهواء ينقصه الوجود المادي .

أي أنّهم – بعبارة أخرى – ينظرون إلى الماضي والحاضر والمستقبل نظرة ميتافيزيقية جامدة تغفل الروابط العضوية التي تشدّ الحاضر بالماضي من جهة وتربطه بالمستقبل من جهة أخرى .

– ٢ –

لقد مرّ بنا القول بأنّ أدب قصص الخيال العلمي يتصف بالرومانتكية التي هي الخيال – بتعبير علماء النفس – والخيال هو – في جوهره – الجانب اللاواقعي في حياة الانسان العقلية والانفعالية وإن كانت عناصره أو مقوماته مستمدّة في الأصل من البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان . معنى هذا أنّ الخيال يعبّر عن نفسه في التأليف أو الجمع (غير المألوف) بين أشياء محسوسة موجودة بشكل مبعثر ومتباعد في الزمان والمكان لغرض إظهارها بأشكال جديدة (غير مألوفة) من حيث علاقتها أو ارتباطاتها ببعضها . والخيال يظهر في جميع نواحي المعرفة

الأنسانية (العلوم بما فيها الرياضيات والفنون بما فيها الأدب والشعر) بدرجات متفاوتة البعد عن الواقع . وكلما ابتعد الخيال عن الواقع المحسوس كان أرقى . والخيال يظهر أيضاً لدى الكبار ولدى الصغار مع اختلافات كبيرة وكثيرة مردّها في الأصل إلى الفرق بينهما في الثقافة وفي النضج الاجتماعي ومن ناحية القدرة على التعبير وفي اسلوب التعبير أيضاً .

يعبر خيال الطفل عن نفسه في سنٍّ مبكرة بآستخدام الطفل الأشياء والأدوات المنزلية المألوفة بأشكال غير مألوفة (بنظر الكبار) ولتحقيق أغراض جديدة غير مألوفة أيضاً . أي أنّ الاطفال ينظرون إلى الأشياء المادية الموجودة حولهم وإلى علاقاتها ببعضها ووظائفها في ضوء قرنية جديدة (غريبة : بالنسبة للكبار) وربما تافهة (أو سخيفة بنظر الكبار) .

وهذا واضح أيضاً في ألعاب الأطفال ورسومهم وأسئلتهم وفي تعليلاتهم للحوادث . فلابدّ والحالة هذه من تشجيع مبادراتهم الفردية تلك واثرائها وتطويرها بجميع الوسائل المتاحة . ومن الجدير بالذكر هنا أنّ تعليلات الاطفال (الطريفة والغريبة) للحوادث أو الظواهر الاجتماعية والطبيعية وبخاصة من ناحية الاسباب والنتائج ناجمة في الأصل عن ضعف مستوى نضجهم الثقافي ووجود فجوة فكرية ثقافية كبيرة جداً بين هذا المستوى من النضج الثقافي وبين نظيره لدى الكبار (وبخاصة المتعلمون منهم)

الأمر الذي يضطر الاطفال - في كثير من الأحيان - على ملء تلك الفجوة الفكرية الثقافية الكبيرة بأخيلة وتعليلات بعيدة عن عالم الكبار. فلابدّ - والحالة هذه - من أن يفتح الكبار جميع منافذ الخيال عند الأطفال وتهيئة جميع المستلزمات المادية لتحقيقه على افضل وجه مع التشجيع والتوجيه والمشاركة والاشادة بجهودهم مهما كانت متواضعة الامر الذي يحفزهم على بذل مزيد من الجهد وعلى توسيع افقهم الثقافي وتطوير قدراتهم الابداعية.

لقد نظر المختصون من العلماء والأدباء إلى قصص الخيال العلمي - حتى عهد قريب - نظرة خاصة باعتبارها (أي قصص الخيال العلمي) غريبة عن كلّ من العلم والأدب على حد سواء: فليست هي - بنظرهم - علماً محضاً لفقدانها بعض مبادئه العامة كما أنّها ليست - من الجهة الثانية - أدباً صرفاً لافتقارها لبعض أسسه العامة أيضاً. وهذه النظرة إلى أدب قصص الخيال العلمي انتشرت كثيراً في الاوساط الأدبية المعاصرة ذات النزعة الواقعية في الأدب: (الغربي: الواقعية النقدية والاشتراكية: الواقعية الاشتراكية). لأنّها بنظرهم تتناول أموراً مضحكة وغريبة يتعذر تصديقها وهي مفعمة بالغلو أو الاغراق وبالاستعارة والكناية والمجاز وبالرمزية. وهذا الرأي مبالغ فيه كما هو واضح. ولا يعنينا أمر الدخول في مناقشته.

- ٣ -

ينتشر في الوقت الحاضر أدب قصص الخيال العلمي في جميع الاقطار بدرجات متفاوتة لاسيما في الدول الكبرى المتقدمة وبخاصة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسة. ويرتبط أو يقترن هذا النمط الجديد والطريف من الأدب العلمي بأسماء طائفة كبيرة ومرموقة من الأدباء البارزين ومن علماء الطبيعة الأفذاذ وبخاصة منهم علماء الفيزياء من حملة جائزة نوبل في موضوعات تخصصهم. وهو أدب يجمع بين الخيال الأدبي ومعطيات العلم الحديث أو بعبارة أخرى علم مضمخ بالخيال الأدبي الفضفاض الذي يتناول بأسلوب فني جمالي مترف قضايا اجتماعية بالغة الأهمية بالاضافة إلى قضايا تتعلق بهذا الكون العجيب. والأدب الحديث هذا يرتبط في الوقت الحاضر بالتقدم العلمي والتكنولوجي المذهل الذي نشاهده في المجتمعات المتقدمة بصورة خاصة في جميع نواحي الحياة: التقدم الذي يعبر عن نفسه في الرياضيات العالية وفي النظريات الحديثة في الفيزياء والكيمياء بالذات وفي السفن الفضائية والحاسبات الالكترونية وفي هذا السيل المنهمر من الأدوات والاجهزة العلمية المتقدمة المستخدمة في المواصلات وأدوات النقل وفي الطب والصناعة والزراعة وفي التعليم. والأدب الحديث هذا - أدب قصص الخيال العلمى - يطلق عليه بعض المعنيين بدراسته اسم «أدب

الاحلام» غير أنّ هذه التسمية مع أنها تمسس جانباً منه – من ناحية كونه يستند إلى الخيال لكونه بعيداً عن الواقع المحسوس بعبارة أخرى – إلاّ أنّها لا تفي بحقه ولا تشتمل على مميزاته الاساسية . فأيّة احلام يجدها المرء مثلاً في رواية الكاتب البريطاني البارز ايج جي ويلز المسماة «حرب العوالم» ! ! ! يضاف إلى ذلك حقيقة كون الإنسان المعاصر بصورة خاصة تواجهه إمكانيات غير متوقّعة ولم يسبق لها مثيل في التاريخ . كما تتفتح أمامه آفاق جديدة ومطامح واسعة نحو التقدم وفي اقتحام المجهول – وهذا هو الذي تدور حوله من حيث الأساس قصص الخيال العلمي – ومع هذا فإنّ الذي ذكرناه لا يستنزف مطلقاً جميع القضايا الكبرى التي يعالجها كتاب قصص الخيال العلمي في الوقت الحاضر وذلك لأنّ كلّ عمل أدبي أصيل ينطوي على جوانب متعددة وأبعاد كثيرة . ومن هذه الزاوية نجد أدب قصص الخيال العلمي يتناول أيضاً – في السنوات القليلة الماضية كما سنرى بعد قليل – قضايا اجتماعية كثيرة أخرى تتعلق بعلاقات الناس وبالأمور الأخلاقية وبمركز المرأة في المجتمع وبأمور كثيرة من هذا القبيل .

- ٤ -

عقدت قبل بضع سنوات (عام ١٩٨١) ندوة طريفة ساهم فيها علماء بارزون في الرياضيات العالية وفي العلوم الطبيعية النظرية لاسيما الفيزياء . كما ساهم فيها أيضاً بعض رجال الفضاء وفئة من الأدباء البارزين المختصين بأدب قصص الخيال العلمي وكان عنوان الندوة (في مفترق الطرق بين الأجرام السماوية» وكان العامل الرئيس الذي أوحى بعقد تلك الندوة الفريدة في بابها والممتعة مرور عشرين عاماً على تحليق أول إنسان في الفضاء الخارجي (رجل الفضاء السوفيتي يوري كاكارين) الذي حلّق في الفضاء الخارجي بمركبته الأرضية فوستوك في يوم ١٢/٤/١٩٦١ والذي استطاع لأول مرة في التاريخ أن يرى الأرض من بعيد ويتمتع بمنظرها الخلاب الذي ترك الإنسان عليه طابعه الخاص المميز . الاشجار والمدن ووسائل النقل وما يجري مجراها .

وقد اقتصر موضوع الندوة المشار اليها على جانب واحد من جوانب أدب قصص الخيال العلمي : وهو أقدمها وأكثرها إثارة : جانب التحليق في الفضاء الكوني : إلى العالم المجهول والمخيف والبعيد . ومعلوم أنّ العالم المحيط بالأرض كان ومازال وسيبقى الموضوع الخصب والبكر الذي يتناوله خيال الإنسان وعقله ومنجزاته العلمية النظرية والتكنولوجية بالدراسة والتمحيص بالنظر لغرابته عمّا هو مألوف هنا على سطح الأرض وحتى بالنسبة

لما هو كامن في باطنها . وموضوع الفضاء الكوني هو في حد ذاته مثير للكبار وللصغار على حد سواء . وفي قصص الخيال العلمي للكاتب الفرنسي فيرن التي سيأتي ذكرها وفي ثنايا كتاب الف ليلة وليلة قضايا خيالية بالغة الأهمية من ناحية تنمية الخيال العلمي عند الاطفال .

— ٥ —

يشترك أدب قصص الخيال العلمي مع الأدب القصصي العام والأدب الخيالي في كونه يسعى نحو «تحقيق ما يتعذر تحقيقه» وأنّه يتعامل «مع ما هو غير موجود» عبر الخيال . ولكن هذا الأدب الجديد في موضوعه ينفرد في كونه يخضع الخيال الأدبي لمنطق العلم . ومع ذلك وربما بسببه فإنّ أدب قصص الخيال العلمي (أو التنبؤ العلمي) لا يُعبّر عنه عن طريق الرموز والمعادلات الرياضية – كما هو الحال في العلم – بل عن طريق الصور الحسيّة الزاهية التي تتصف بالاناقة وبالجمال الفني . ومن هذه الزاوية يمكننا أن نعرّف أدب قصص الخيال العلمي بأنّه شكل منظّم تنظيماً علمياً من اشكال الخيال الفني : الخيال الفني المنظم تنظيماً علمياً .

وأدب قصص الخيال العلمي – بخلاف الأدب الخيالي العام

– يستبقي طابعه العلمي مع كونه أيضاً في الوقت نفسه يتصف بالعمق والأصالة الأدبية الجمالية وسعة الأفق الاجتماعي التي لانجدها في العلم وفي تقصيه العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الفرد والمجتمع الأمثل الذي يسعى الإنسان لتحقيقه على سطح الأرض.

وقد ثبت من الناحية التاريخية أنّ أدب قصص الخيال العلمي نشأ في الوقت الذي نشأ فيه العلم الحديث في القرن السابع عشر. ومن الأمثلة الأولى على ذلك نجدها مبعثرة في أعمال توماس مور (More) وبتلر (Butler) وسويفت (Swift) وبالطبع بعد ذلك عند ايج جي ويلز (H.G.Wells).

– ٦ –

مما لاشك فيه أنّ أدب قصص الخيال العلمي هو فرع من الادب الخيالي (الرومانتيكي) وأن منزلته في الوقت الحاضر تحددها في الاساس قوته الفنية الجمالية أو ضعفه. ومع ذلك فإنّ هناك جوانب معينة خاصة بهذا النمط من الأدب لابدّ من أن يأخذها القارئ بعين الاعتبار دائماً وأبداً. ومما لاشك فيه أيضاً أن طبيعة العصر الذي نعيش فيه من حيث تقدمه المذهل العلمي النظري والتكنولوجي تجعل الناس ينظرون إلى الأدب الجديد هذا – أدب

بنظرنا – وفي الأعم الأغلب – المساهمة في خدمة الإنسان ورفع مستواه المادي والثقافي على حد سواء .

– ٧ –

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نصف أدب قصص الخيال العلمي بأنّه أدب واقعي في الأصل من حيث المنطلق ومن حيث الغاية القصوى التي يسعى إلى تحقيقها من الناحية العملية والواقعية في المدى البعيد . والغاية القصوى هذه هي – في هذه المرحلة من مراحل تطور المجتمع – مازالت ذات طبيعة رومانتيكية وأن كانت مشرّ به بالعلم . وهذا هو جوهر أدب قصص الخيال العلمي كما سلف أن بيّنا مرات متعددة . وهذا هو الذي يميزه عن الأدب الواقعي المحض وعن الأدب الرومانتيكي الخالص من جهة ويربطه بكلّ منهما بأوثق الروابط من جهة أخرى . وهو الذي يربطه بالعلم في بعض النواحي ويعزله عنه في نواحٍ أخرى .

– ٨ –

موضوعات أدب قصص الخيال العلمي كثيرة ومتنوعة جداً رغم أنّ بعض الباحثين النظريين يشيرون إلى أنّ تلك الموضوعات

قصص الخيال العلمي – بعينٍ غير العين التي ينظرون بها إلى نمط الأدب التقليدي الشائع الذي تحدّر عبر العصور وبخاصة فيما يتصل بمعالجة القضايا الاجتماعية الكبرى. وبعضهم يتساءل – وهو على حق – ما هو دور أدب الخيال العلمي في عالم اليوم باعتباره الأدب الوحيد الذي يطلق لخيال صاحبه العنان ليس على نطاق الأرض وأنّما أيضاً على نطاق الكون اللامتناهي في الزمان والمكان؟

ما موقفه من الايديولوجيات المتعارضة؟ والمشاكل الدولية الملحة؟ والتقدم العلمي والتكنولوجي المذهل؟ والآثار الاجتماعية القريبة والبعيدة الناجمة عنه؟ إلى أين تتجه البشرية بهذه السرعة المذهلة؟ ولماذا فجرّ علماء الفيزياء نواة الذرة؟ وما علاقة الإنسان بالآلة؟ لماذا يرتاد الإنسان الفضاء الخارجي؟ وما يجري هذا المجرى من الاسئلة التي تحمل طابعاً فلسفياً ونظرة فاحصة وعميقة إلى قضايا علمية واجتماعية راهنة بالغة الأهمية. ونوع الإجابة عن الاسئلة المشار اليها – ونظيراتها وهي كثيرة جداً – يتوقف بالدرجة الأولى والأهم على نظرة الفرد إلى الأمور النابعة من منطلقاته الفلسفية. ومع ذلك فإنّه لما كان الاتجاه العام لكتّاب أدب الخيال العلمي الأفذاذ يرمي إلى تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية بين الناس في مختلف الأقطار ومقاومة الاستعباد والاضطهاد فإنّ الإجابة العامة عن الأسئلة المنوّه عنها ستكون

المتنوعة تقعُ ضمن مجموعات أو أنماط محددة مثلاً :

نمط الاساطير والقصص الخرافية ونمط الأدب الصرف أو المحض (الخيالي : الرومانتيكي) والنمط التكنولوجي (السفر بين الاجرام السماوية وإليها من الأرض) والنمط الاجتماعي الفلسفي الأخلاقي . والانماط المشار اليها بنظرهم متكاملة ومتبادلة الأثر بحيث يتعذر وضع حدود فاصلة بينها من الناحية العملية وأنّها جميعاً - بهذا الشكل أو ذاك - مستمدة في الأصل من الواقع الذي تنظر إليه من وجهة نظر غير مألوفة وتوحد بين عناصره المتباعدة في الزمان والمكان بهيئة غير مألوفة أيضاً ومع ذلك فإنّ الشيء الذي لا يرقى اليه الشك هو أنّ أدب قصص الخيال العلمي هو في جوهره أداة لدراسة الواقع دراسة فنية جمالية . ومن هذه الناحية فإنَّ هذا الأدب يثري الأدب الواقعي ويرفعه إلى مستوى أعلى من الأناقة ويوسع أفقه ويفتح له منافذ واسعة تجعله يلتحم بالأدب الرومانتيكي الذي يصبح بدوره أكثر أناقة وجمالاً وروعة من الناحية الفنية . كما أنّ أدب قصص الخيال العلمي يتلقح - من الجهة الثانية - ببعض معطيات العلم الحديث وبأسلوبه في التفكير أيضاً وبالخيال الذي لا يعرف السدود أو القيود . وهذا واضح بشكل ملحوظ في التطور اللاحق الذي مرّ به قصص الخيال العلمي في السنوات القليلة الماضية عندما انحرف في اتجاهاته العامة عن مهمة تبسيط العلم والتكنولوجية إلى معالجة

قضايا اجتماعية أساسية بالغة الأهمية وملحة في حياة الإنسان الحديث في مجالات الحياة المتعددة : السايكولوجية والتربوية والاخلاقية وما يجري مجراها . وهذا يعني بعبارة أخرى أن أدب قصص الخيال العلمي - بالنظر لالتصاقه بالتقدم العلمي النظري والتكنولوجي الحديث - أخذ بدمج التطلعات الأدبية الفنية الجمالية بالنظرة العلمية إلى الأشياء في هذا العالم المتحرك أبداً إلى الأعلى وإلى الأمام في الزمان والمكان بصورة عديمة الانقطاع. والالتصاق المشار إليه بين النظرة الفنية الجمالية والنظرة العلمية إلى طبيعة الأشياء وعلاقاتها وقوانينها يفتح أمام أدب قصص الخيال العلمي آفاقاً جديدة رحيبة لا يتسع لها العلم الصرف على انفراد ولا الأدب التقليدي وحده .

كما أنه أيضاً يجعل الأدب بالذات يتخطىّ مهمّاته التقليدية ويتصدّى لبحث قضايا اجتماعية كبرى وملحة لا تمتّ إلى الأدب في السابق من قريب أو بعيد . كما أنَّ الخيال الأدبي - بشكله التقليدي المألوف في الأدب لاسيما الشعر - يندمج إلى درجة الانصهار بالخيال العلمي فيرفع كلّ منهما صاحبه إلى مستوى أعلى ويثريه .

ومع ذلك وربما بسببه فإنَّ الحكم على قيمة أدب قصص الخيال العلمي ينبغي أن لا يستند إلى جانبه العلمي بقدر استناده إلى ناحيته الفنية الجمالية . وذلك لأنَّ الجانب العلمي قد لاينسجم

في بعض الأحيان مع معطيات العلم أو منطقه ولكنّ الجانب الفني الجمالي الأنيق الذي يتألق فيه يعطيه روعته . ومن الجهة الثانية فإنّ كثيراً من توقعاته التي لا تنسجم مع العلم في مرحلته الراهنة ربما تجد صداها العلمي في فترة لاحقة من تطور العلم . وهذا يعني - بعبارة أخرى - أنّ أدب قصص الخيال العلمي أكثر طموحاً من العلم - ولا نقول بالطبع أكثر تقدماً منه-

غير أنّ الطموح هذا ليس ناجماً بطبيعته من الفكر العلمي ليكون تحقيقه مضموناً على نسق التنبؤ العلمي في كثيرٍ من المجالات بل هو حصيلة نزعة خيالية رومانتيكية قد تصدق وقد تبقى مجرد أمانٍ أو أحلام تراود الإنسان لفترة طويلة أو قصيرة من الزمن اللاحق وأن كان بعضها - في الأقل - ممكن التحقيق من الناحية العملية الواقعية في المستقبل البعيد وربما المستقبل المنظور .

أدب قصص الخيال العلمي المعاصر

مما لاشك فيه أنّ أفضل كُتَّاب قصص الخيال العلمي في جميع الأقطار يشتركون في بعد النظر الأجتماعي وفي تخطّي العنعنات الايديولوجية وينظرون إلى الناس على قدم المساواة في كلّ زمان ومكان. وهم جميعاً يمقتون الظلم والأضطهاد والأستعباد ويتطلّعون إلى المستقبل الأفضل الذي تنتشر فيه السعادة والتعاون والأحترام المتبادل بين الناس. ومن الجهة الثانية فإنّ الأختلافات الموجودة بين هؤلاء الكتاب هي مصدر قوّة لأدبهم وللبشرية جمعاء. فالتنوّع والتعدّد هو الذي يعطي الحياة طابعها اللذيذ.

كما أنّ التنوّع والتعدّد هو أحد سمات الطبيعة الجامدة والحية على حدٍّ سواء. شريطة أن يكون ذلك أداة للتقدم وتضافر الجهود لا العكس.

هناك جوانب مشتركة بين أدب قصص الخيال العلمي في الغرب ونظيره في المجتمع الأشتراكي وبخاصة في الأتحاد السوفيتي. كما أنّ هناك جوانب خاصة متميزة في كلّ منهما لا يشاركه فيه زميله الآخر. معنى هذا وجود أختلافات كبيرة وكثيرة بين أدب قصص الخيال العلمي في الغرب ونظيره في العالم الأشتراكي لاسيما الأتحاد السوفيتي. وهذه الأختلافات ناجمة في الأصل عن الأختلافات الموجودة بين النظامين الأجتماعيين. الغربي والأشتراكي. وهذا يعني – بعبارة أدق – أن هذه

الاختلافات ترجع بصورة مباشرة إلى اختلاف الأدب الواقعي الأشتراكي عن نظيره الأدب الواقعي الغربي. ومن هذه الزاوية نجد أنّ «أبطال» قصص الخيال العلمي في الأتحاد السوفيتي هم في الأعم الأغلب شخصيات اجتماعية نشطة مشبعة بالمبادئ الأشتراكية وملتزمة بقضايا مجتمعها وعصرها.

في حين أنّ.«أبطال» أدب قصص العلمي الغربي تتصف بتجسيد أهمية حرية الفرد ونشر العدالة الأجتماعية في إطار النظام الأجتماعي الغربي مع إظهار أو إبراز جوانبه السلبية والإشادة بالجوانب الإيجابية مع مقت النزعة العسكرية والعدوانية. ومن الجهة الثانية فإنّه يبدو أنّ خيال الكتّاب الغربيين لاسيما الأمريكيين منهم أخصب بكثير وأكثر أناقة من خيال الكتّاب السوفييت. وهناك اختلاف ملحوظ آخر بين كتاب قصص الخيال العلمي الغربيين والأشتراكيين (لاسيما السوفييت) هو أنّ الكتاب الغربيين متهيبون من المستقبل وينظرون إليه بعين التشاؤم والرعب بالنسبة لمستقبل الإنسان على سطح الأرض. في حين أنّ الكتاب الأشتراكيين يذهبون إلى الجهة المعاكسة ويثقون بالمستقبل وبالتقدم الحتمي للنوع الإنساني. ومع ذلك فإنّ الأغراق في التشاؤم في النظر إلى مستقبل النوع الإنساني لا مسوّغ له بنظرنا وإن كان التحذير من مخاطر الحرب والنزعة العسكرية وعدم الثقة بين الدول على الصعيد العالمي أمراً مرغوباً فيه. ومن

الجهة الثانية فأنّ الأتجاه نحو الجهة المعاكسة والمبالغة في التفاؤل قد لا يخلو من المخاطر. والشيء المعقول بنظرنا الايمان بمستقبل البشرية مع التحذير من المخاطر التي قد تعكّر صفوه في المدى القريب بالأقل.

ومن هذه الزاوية فإنّ أدب قصص الخيال العلمي لدى الجانبين ضروري ومتكامل: يبعدنا أحد جانبيه عن الأغراق في التفاؤل وعن المبالغة في تجسيد ما هو ايجابي وتقدمي من ناحية كما يبعدنا أيضاً عن الأستسلام للقنوط وعن المبالغة في تجسيد ما هو سلبي ورجوعي من ناحية أخرى.

يضاف إلى ذلك أنّ الجوانب السلبية تحفزنا على أتخاذ الأجراءات الايجابية الفعّالة لاستئصالها في المدى البعيد ولدعم كلّ ما هو ايجابي وتطويره وإثرائه بصورة عديمة الانقطاع وبجهود مشتركة وبجميع الوسائل المتاحة ولدى جميع الناس على اختلاف مهنهم ومشاربهم وفي مقدمتهم المثقفون بالطبع لاسيما الأدباء.

أ: قصص الخيال العلمي في انكلترا:

إنّه لمن المتعذر أن يتحدث المرء عن قصص الخيال العلمي الانكليزية بمعزلٍ عن قصص الخيال العلمي الامريكية. وذلك للروابط اللغوية والتأريخية ولتماثل التقاليد الأدبية وللأبحاث المشتركة ولكون كتّاب قصص الخيال العلمي الأنكليز البارزين

ينشرون مؤلفاتهم في الولايات المتحدة. ومع ذلك فإنّه على الرغم من أوجه التماثل الموجود في قصص الخيال العلمي في القطرين إلا أن لكلٍّ منهما خصائصهُ المحلية المميّزة. وأن إغفال هذه الخصائص المحلية أو التقليل من شأنها يسىء إلى الطابع المميّز لقصص الخيال العلمي في المجتمعين على حدٍّ سواء.

لاشك في أن الموضوع الأساسي المشترك بين جميع كتاب قصص الخيال العلمي الأنكليز والأمريكيين-وفي الأقطار الأخرى أيضاً - كان ومازال (وسيبقى على ما نظن لفترة طويلة من الزمن) أحد المشاكل الأجتماعية الملحة المتمثلة في العلاقة بين المجتمع والعلم وبين الفرد والعلم وبين الإنسان والعالم اللامحدود في الزمان والمكان. وهذا هو جوهر محتوى أو مضمون أو رسالة أدب قصص الخيال العلمي في الوقت الحاضر على كلّ حال. وهو - من بعض الوجوه أيضاً - أحد الموضوعات الكبرى التي يعالجها الأدب عموماً والفلسفة ومجمل العلوم الإنسانية.

وقد تناوله - مع اختلاف في السعة والعمق - بصورة مباشرة وغير مباشرة أدباء قصص الخيال العلمي الأنكليز لاسيما أبرزهم من القدامى والمحدثين:

١ - جونثنان سوفت.
٢ - صاموئيل بتلر.
٣ - وليم مورس.

٤ - روبرت ستيفنسن .
٥ - آرثر كونان دويل .
٦ - ايج . جي . ويلز .
٧ - اولاف ستبلتون .
٨ - فريد هوبل «عالم فيزياء . وفلك بارز صاحب نظرية معروفة في نشوء الكون» .
٩ - آرثر كلارك «يعيش الآن في سيرلانكا وهو من أبرز أدباء قصص الخيال العلمي» .
١٠ - أربك رسل .
١١ - كنيث بليمر .
١٢ - نفيل شوت .
١٣ - آرثر كوستلر «من أبرز علماء النفس الأنكليز وله نظرية في تفسير طبيعة الأبداع» .
١٤ - أي سي تب .
١٥ - بربان الدس .
١٦ - جميس بالار .
١٧ - جون برومر .
١٨ - ميخائيل موركوك .
١٩ - ناحم متسجسن .
٢٠ - كيري دائس .
٢١ - بيتر دكنسن .
٢٢ - كنت بدلر .
٢٣ - جوزفين ساكستون (وهي سيدة من أبرز الكاتبات في أدب قصص الخيال العلمي) .
٢٤ - بوب شو .
٢٥ - ايان دنستن .
٢٦ - ماري ستيلي «وهي سيدة أيضاً ولها انتاج أدبي رائع في ميدان قصص الخيال العلمي» .
٧- جون ويند هام .

٢٨ – هيل كارتو كرافتر
٢٩ – دك موركاند .
٣٠ – ميخائيل كرايتون .
٣١ – ريمون هاوكي .
٣٢ – بيتر دكنسن .

والأسماء المشار إليها تختلف في مدى مساهمتها في النشر وفي الموضوعات الخاصة التي يتطرق كلّ منهم إليها وفي درجة خصوبة خياله . وقد قسمهم أصحاب الأختصاص إلى ثلاث فئات . بعضهم ذاع صيته منذ أربعينيات هذا القرن وبعض في خمسينياته . وآخرون منذ الستينيات إلى الوقت الحاضر . واعتبروا هذه الفئة الأخيرة بأنّها واقعة تحت تأثير كتابات جون ويندهام الذي توفي قبل زهاء خمس عشرة سنة :

وذلك بنظرهم لكون هذا الكاتب المختص بقصص الخيال العلمي أصيل في تفكيره وله باع طويلة في الكتابة بالأسلوب الأدبي الرصين الأمثل . كما أنهُ كان الكاتب الأول من كتاب قصص الخيال العلمي الذي أتخذ من مجال علم الأحياء أساساً لمحتوى قصصه وأنَّ الكتاب الأنكليز المعاصرين في مجال قصص الخيال العلمي عيال عليه وبخاصة مجموعته القصصية التي نشرها عام ١٩٥٦– قبل وفاته بثلاث عشرة سنة–التي عنوانها «بذور الزمن» Seeds of Time كما أنّه أيضاً تناول بكتاباته قضية المرأة أو

الحركة النسوية في الغرب عموما وفي انكلترا بالذات في روايته المسماة Dumb Maritan «دمب ماريتان» وفي روايته الأخرى «الأنزعاج من لنجن» The Truble with Linchen وفي روايته الأخرى «تأمل أساليبها» Consider Her Ways . وهذه الروايات أدّت بعد ذلك الى تعاظم الحركة النسائية في انكلترا بصورة خاصة وفي الغرب على وجه العموم لاسيما في الولايات المتّحدة في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات . كما أنّ ويندهام عالج قضية الإنسان معالجة جديدة ومستفيضة وعميقة الأمر الذي مهد السبيل إلى آخرين كثيرين غيره من كتاب قصص الخيال العلمي لمواصلة البحث في هذه القضية الأجتماعية المستعصية والملحة وفي مقدمة هؤلاء : آرثر كلارك وفريد هوبل . والجانب الأخلاقي لمشكلة الإنسان يحتل مركزاً مرموقاً في أدب قصص الخيال العلمي عند ويندهام بالذات كما أتضح ذلك بجلاء في روايته المسماة «يوم تريفيدز» The Day of the Triffids وفي روايته الأخرى «مدوج كوكوز» The Midwich Cockoos وفي روايته الثالثة : التي مرّ ذكرها «الأنزعاج من لنجن» the Trouble with Linchen وقد عالج فيها جميعاً بحكمة وإدراك مشكلة الإنسان المعاصر في المجتمع الغربي وبخاصة ما يتصل بحرية الفكر وظروف المعيشة والوقوف بحزم ضد المغريات المادية التافهة والسريعة الزوال وقد نسج على منواله بشكل خاص وباسلوب طريف مختلف جون برونر في

روايته التي نشرها عام ١٩٧٥ بعنوان «الكسوف الكلي» Total Eclipse .

والتي صور فيها نهاية الحضارة التي أطلق عليها اسم «سيكما دراكنوز» Siqma Dracomis . ومن الجدير بالذكر هنا أن أبطال جون برونر يموتون في ارجاء بعيدة عن الأرض بعد أن انتظروا عبثاً لوقت طويل أن تصل إليهم مركبة من الأرض لنقلهم دون أن يقنطوا من ذلك يوماً بعد وفاتهم بأن تصل أخبارهم واكتشافاتهم وملاحظاتهم إلى الأرض .

ويجري هذا المجرى اتجاه جمس بالارد في قصص الخيال العلمي ونظرته العنيفة ازاء موطن الإنسان الحديث في العالم الغربي المعاصر وضد النزعة الفردية في شكلها المتطرف . وكذلك بريان الدس في روايته التي نشرها عام ١٩٧٣ تحت عنوان Fran kem Stein Mnbound وفي روايته الأخرى المنشورة عام ١٩٧٤ التي عنوانها «الساعة ذات الثمانين دقيقة» The Eiqhty Uinmtes Homr

لقد اتجه كتاب قصص الخيال العلمي في انكلترا بصورة خاصة والولايات المتحدة طوال السنوات العشر الماضية نحو تحليل النفس وتبيان العوامل الأجتماعية التي دفعتهم إلى ارتياد هذا الأتجاه الأدبي المعاصر في قصص الخيال العلمي فظهر ذلك تحت عنوان : «كروتو غرامز الحجيم» Hells Cor togr aphers . كما

ظهر ذلك أيضاً بشكل ملحوظ في حركتين أدبيتين واضحتي المعالم هما الحركة المسماة «الموجة الجدبدة» والأخرى الحركة المسماة الحركة «غير المنحازة» كما أتضح ذلك في كتابات أو روايات بوب شو لاسيما : «يكمن الغد في الكمين» Tomorrow Lies in Ambush

وهو كتاب يعبّر أفضل تعبير عن وجهة النظر الأنكليزية في قصص الخيال العلمي بصدد موضع الإنسان الغربي في المجتمع الحديث . وفيه نقد لاذع - بصورة واضحة وباسلوب الخيال العلمي - لأساليب السيطرة على العقل عن طريق الدعاية المنضمة ووسائل الأعلام وما يسمّيه المؤلف «تزييف التأريخ» كما ظهر ذلك بشكل آخر لدى آرثر كلارك الذي هاجم استخدام منجزات علم الفسلجة المعاصر لاغراضٍ غير إنسانية . ولدى دك مورلاند في روايته : «ساعة القلب **Heart Clock** التي نشرها عام ١٩٧٣ ولدى ميخائيل كرايثون في روايته التي نشرها عام ١٩٧٢ : the Terminal Man . وعند ريموند كاوكي في روايته : «الأثر الجانبي» **Side Effect** التي نشرها عام ١٩٧٩ .

ومن الطريف أن نشير هنا إلى أنّ كتاب قصص الخيال العلمي الأنكليز قد اتجهوا في السنوات القليلة الماضية نحو معالجة قضايا التمييز العنصري وهذا واضح لدى بيتر دكنسن في روايته التي نشرها عام ١٩٧٣ :

«الجين الأخضر»The Green Geen وظهر أيضاً لدى جون

برونر المعروف بمواقفه الصلبة ضد الحرب في رواياته المتكاملة الثلاث التي تتناول مشاكل اجتماعية ملحة معاصرة : «الوقوف على زنزبار» Stand on Einzibar التي نشرها عام ١٩٦٩ . «الغنم تنتظر» the Sheep Look . up التي نشرها عام ١٩٧٢ وفي روايته الثالثـة التي نشرها عام ١٩٧٥ «اهتـزاز راكب الموج .» the Shock of Ware Rader .

وقبل أن ننهي هذا الجانب من جوانب الموضوع نود أن نشير إلى أنّ المرأة الغربية وبخاصة في انكلترا والولايات المتحدة بدأت تساهم بعطاء في كتابة قصص الخيال العلمي في السنوات القليلة الماضية في انكلترا وفي الولايات المتحدة بصورة خاصة . تأتي في مقدمتهن وربما ألمعهن الكاتبة الأمريكية أزبلا لكون التي تناولت في رواياتها المختلفة قضايا اجتماعية بالغة الأهمية أضفت عليها طابعاً فضفاضاً من خيالها الأنيق .

ومع أنّها – وزميلات لها كثيرات في أقطار متقدمة أخرى – بدأن في ممارسة أدب قصص الخيال العلمي في فترة زمنية متأخرة نسبياً عن زملائهن الكتاب إلاّ أنّ الكثير من نتاجهن الأدبي يتصف بالأصالة والأناقة . ولابّد من الإشارة هنا أيضاً إلى أنّ الأديب البريطاني المختص بأدب قصص الخيال العلمي آرثر كلارك الذي يعيش الان في سرلانكا من أبرز كتاب قصص الخيال العلمي المعاصرين . وهو كاتب ممتع ومكثر طبقت شهرته

الآفاق وأبرز رواياته التي ترجمت أيضاً الى لغات أخرى : «المدى العميق» The Deep Range و «سقوط غبار القمر» The Fall of Moon Dust . و «رمال المريخ» The Sands of Mars و «جزيرة الدلفين» The Dolphen Island و «أوديسا المكان» – ٢٠٠١ . 2001 – A Space Odyssey .

ب : أدب قصص الخيال العلمي في الولايات المتحدة :

نشأ أدب قصص الخيال العلمي بشكله المتبلور المستقر في الولايات المتحدة الأمريكية منذ عشرينيات هذا القرن . أما أبرز المشتغلين فيه فهم :

١ – جرنيسان (المشهور بتنبؤاته العلمية الطريفة) .
٢ – سمث .
٣ – ادموند هاملتن .
٤ – بارزك (المعروف برواياته المعروفة التي تتناول مغامرات رجال الفضاء الخياليين)

ثم تطور أدب قصص الخيال العلمي في الولايات المتحدة الأمريكية منذ ثلاثينيات القرن العشرين واتسع مجاله وكثر العاملون به وفي مقدمتهم .

١ – جون كامبيل الابن
٢ – براوبري
٣ – ستانلي وينبم
٤ – تين

٥ - بوهول
٦ كورتيلت
٧ هانيين
٨ جاك ديمسن
٩ - ثاكلي
١٠ - فونكوت

ثم نشأ في الولايات المتحدة بعد ذلك وعلى أساسه منذ ثلانينيات هذا القرن العشرين واوائل السبعينيات اتجاه جديد في أدب الخيال العلمي اطلق عليه اسم «الموجة الجديدة» The New Wave واشهر العاملين فيه :

١ - دلي
٢ - زالازين

وأخرون كثيرون تتعذر الإحاطة باسمائهم . ويلوح لي أنّ أدب قصص الخيال العلمي في الولايات المتحدة هو الأكثر سعة أو شمولاً والمتعدد الموضوعات والاتجاهات والأغزر أيضاً بالقياس للاقطار الأخرى بفعل الامكانيات البشرية والمادية الهائلة المتوافرة .

لقد أجمع كتاب قصص الخيال العلمي في الولايات المتحدة وانكلترا على تسمية فترة اربعينيات هذا القرن بالنسبة لقصص الخيال العلمي «العصر الذهبي» The Golden Age وذلك عندما

برز بوضوح كلّ من : ري براوبري الأمريكي وآرثر كلارك البريطاني وآسحاق اسموف الأمريكي وروبرت هانلتى الامريكي وكاسفورد سمارك البريطاني . مع العلم أنّ ري براوبري يحتل الموقع الأول بين هؤلاء جميعا في كونه نادى في كتبه التي سيأتي ذكرها بعد قليل بضرورة نشر التفاهم الدولي بين الأمم ونشر العدالة الاجتماعية والثقة المتبادلة وبخاصة بين الدول ذات الأنظمة السياسية والاقتصادية المختلفة . وهذه القضايا الاجتماعية البالغة الأهمية هي محور كتبه التي أقبل عليها القراء اقبالاً منقطع النظير بحيث نفدت بعد أشهر قليلة من نشرها «مارتيان كرونكل» The Mar tian Chronicles

و «وداندليان واين» The Dandellion

و «٤٥١ فهرنهايت» Fahr enhiet 451

كما تناول هذه الأمور وأموراً اخرى مماثلة في مجموعاته القصصية التي ضمت «١٢٠» قصة ترجمت معظمها إلى لغات أخرى وهناك أيضاً هنري كوتز وفردرك برون ووليم تين و جمبز كم بلش وهاري هاريسن وبول اندرسن والفرد فان فوكت وجان فانسن وجميزكم وكوردون دكسن وريجارد ميتسن ودارمون نايت واندري نورتن وكود اولفر وروبرت هانيلان .

وفي الولايات المتحدة — بالنظر لضخامة أمكانياتها المادية

والثقافية — أدباء آخرون كثيرون من المهتمين بقصص الخيال العلمي تتعذر الإحاطة باسمائهم بعضهم حديث العهد وبعض آخر بدأ يشق طريقه بصعوبة .

ج : أدب قصص الخيال العلمي في فرنسة :

لاشك عندي في أنّ الأدب الفرنسي القديم والحديث الذي يزخر باسماء كتاب لامعين من الواقعيين والرومانتيكيين (رابالية واميل زولا وبلزاك وفكتور هوكر واناتول فرانس) يزخر أيضاً في الوقت الحاضر باسماء كثيرة لامعة في مجال قصص الخيال العلمي . غير أني – مع الاسف الشديد – لم أعثر في المصادر المتاحة بالانكليزية إلاّ على عدد ضئيل هم : ناودونرا وورونرنياريك وهميبرت وميرل وفيرن (وهو كاتب وجه قصصه في الخيال العلمي إلى الاطفال وبخاصة روايته الذائعة الصيت «ثمانمائة عصابة والبحر» Eighty Theomsamd Leagmes and the Sea

د : أدب قصص الخيال العلمي في الاتحاد السوفيتي

يبدو — كما سنرى بعد قليل — أنّ أدب قصص الخيال العلمي نشأ في الاتحاد السوفيتي متأخراً من الناحية الزمنية عن نظيره في الغرب لاسيما في الولايات المتحدة لعوامل كثيرة لا نرى مسوّغاً للدخول في تفاصيلها. ولكن أدب قصص الخيال العلمي أخذ بالتعاظم والانتشار وتعددت موضوعاته وكثر عدد المساهمين فيه وفي مقدمتهم (من الذين ترجمت آثارهم إلى اللغة الانكليزية وربما الى لغات اخرى):

١ سرجيف
٢ لوروفيزكي
٣ فاراشافيزكي
٤ بيفل امنوبل
٥ دبمتري بالينكسن
٦ فلاديمير فرسوف
٧ ايكور روسوخوفاتسكي
٨ فلايمير سجير باكوف
٩ ليونيد باناسنكو
١٠ بورس روماتوفيزكي

وقد شهدت الفترة الزمنية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية تبلوراً ملحوظاً في أدب قصص الخيال العلمي في الاتحاد السوفيتي فنشأت في أول الامر روايات قصص الخيال العلمي على أساس علمي واقعي مقصورة على ما يسمى «مصير الاكتشاف» وتطور الآراء العلمية النظرية والتكنولوجية منذ نشوئها حتى استكمال نضجها لدى فريق من العلماء أو لدى عدة أجيال من الباحثين ثم تحول «مصير الاكتشاف» هذا بعد ذلك وعلى أساسه الى ما يمكن أن يسمى «مغامرات الأفكار» حيث يرى القارئ ميلاد الأفكار العلمية الجديدة أو نشوء نزعة علمية جديدة وتحول النظرية العلمية الى واقع تطبيقي ملموس. أما الآن فإنّ هذا الاتجاه في أدب قصص الخيال العلمي أخذ بالانحسار ليحل محله نمط جديد ينصبّ الكثير منه على التأمل في المجرات والمجاميع الشمسية وفي الاجرام السماوية الهائلة البعد عن الأرض. وينصبُّ بعضه الآخر على الجمع ما بين منطق العلم والجوانب السايكولوجية كما يراها الأدباء ممتزجة الى درجة الانصهار بالنواحي الاخلاقية. كما أنّ بعضهم بدأ يعبر عن هذا النمط الجديد من أدب قصص الخيال العلمي شعراً لا عن طريق النثر كما هو مألوف. وفي الاتحاد السوفيتي مجموعة من أدباء قصص الخيال العلمي اللامعين ولكن أدبهم هذا غير مترجم إلى اللغات الأوربية المعروفة وبخاصة الانكليزية التي هي مصدرنا الغربي

الوحيد . ولكن المجلات السوفيتية الأدبية (وبخاصة مجلة الأدب السوفيتي المعروفة) تنشر بين حين وآخر قصصاً قصيرة لبعض كتاب قصص الخيال العلمي السوفيت .

أدب قصص الخيال العلمي وعالم الاطفال

- ١ -

لتربية الخيال - العلمي وغير العلمي - لدى الطفل منذ سن مبكرة أهمية تربوية واجتماعية بالغة. وهنا تبرز أهمية أو منزلة القصص الخرافية (العلمية وغير العلمية) التي يقرأها الكبار الى الاطفال.(أو يروونها لهم) شريطة أن تنطوي تلك القصص الخرافية على مضامين اخلاقية ايجابية وأن تكون سهلة الأسلوب واضحة المعنى ومثيرة غير مألوفة بالطبع. كما تبرز أيضاً أهمية إصغاء الكبار الى القصص (الخرافية) التي يرويها الاطفال إلى الكبار - وهي من نسج خيالهم - وعلى الكبار - في هذه الحالة - أن يبتعدوا كلّ الابتعاد على اتهام الاطفال بالكذب لأنّ تلك القصص «الكاذبة» ليست هي كذلك من الناحية الاخلاقية ويجب أن لا يعتبرها الكبار كذلك في الأقل أمام الصغار بل هي غير حقيقية أو غير واقعية (من نسج الخيال).

إنّ القصص القصيرة المثيرة (لاسيما الخرافية منها) تحتل مكانة مرموقة في أدب الاطفال منذ سنٍّ مبكرة. وهنا تتضح منزلة هذا النمط من القصص الذي يرويه الكبار للاطفال أو يقرأونه لهم شريطة أن ينطوي محتواه على مضامين اخلاقية واجتماعية ايجابية وأن يكون سهل الاسلوب واضح المعنى (بالنسبة للأطفال أنفسهم). كما تتضح أيضاً أهمية اصغاء الكبار للقصص الخيالية (الخرافية) التي يرويها الاطفال عن انفسهم في بعض الأحيان.

وعلى الكبار – في هذه الحالة – أن يبتعدوا عن اتهام الاطفال بالكذب لأنّ تلك القصص التي هي من نسج خيالهم ليست كاذبة (بالمعنى الاخلاقي) بل هي غير واقعية . والعامل الرئيس الذي يدفع الاطفال الى ذلك هو أنّهم ينظرون في العادة إلى الاشياء المألوفة نظرة غير مألوفة (بمقاييس الكبار) أو تافهة أو سخيفة . وهذا واضح في تعليلاتهم للأحداث والعلاقات بين الأشياء (وبخاصة ربط الاسباب بالنتائج (غير المألوفة عند الكبار) . فلا ينبغي الحيلولة دون تعبيرها عن نفسها إذا لم يكن هناك مانع اجتماعي (أو اخلاقي) وجيه يستلزم تعديلها وفق مستوى نضج الطفل الثقافي . وعلى الكبار الابتعاد عن الترمت في مثل هذه الاحوال وأن يتذكروا دائماً أنّهم انفسهم سبق أن مرّوا بمرحلة نضج متشابهة واجتازوها . أمّا العامل السايكولوجي العميق في ذلك (أي في غرابة تعليلات الاطفال) فهو الفجوة الكبيرة بين معرفة الطفل ومعرفة الكبار بطبيعة الأشياء وبالعلاقات السببية بين الأحداث الموجودة في العالم المحيط بهم وكون الاطفال مضطرين سايكولوجياً – في كثير من الأحيان – على ملء الفجوة الكبيرة في معرفتهم بتعليلات خيالية (خرافية) غريبة عن عالم الكبار . وهذا يعني أنّ خيال الطفل أداة فكرية فاعلة يستخدمها لملء الفجوة الموجودة بين معرفته الناقصة بما حوله وبين ما هي عليه عند الكبار كما أنّ الطفل يجد متعة

سايكولوجية ويكتسب خبرة مثيرة في عمله الذهني هذا . فلابدّ إذن من فتح جميع منافذ الخيال أمامه وتهيئة جميع الامكانيات المتاحة له للتعبير عنه بحرية وعفوية وحماسة .

ومن هذه الزاوية نجد فئة كبيرة من أبرز المختصين بأدب الاطفال في الدول المتقدمة بصورة خاصة يولون اهتمامهم البالغ للدور الايجابي الفعّال الذي تؤديه القصص القصيرة الخيالية في تربية الاطفال خلقياً وجمالياً وفي صقل مشاعرهم المرهفة وتوسيع معرفتهم وزيادة ثروتهم اللغوية وخلق الحافز لديهم لاقتحام المجهول .

وجميع الاطفال - في سن الطفولة - يميلون بكلّ جوارحهم بحكم تكوينهم السايكولوجي ومستواهم الثقافي نحو الاصغاء الى وقراءة هذا النمط من القصص الذي ينشر في كتب الاطفال ومجلاتهم كما يجنحون أيضاً الى سماع وقراءة الموضوعات المثيرة والحيوية والمسلية والغريبة الاحداث التي تحمل المغامرات والاخبار الجديدة غير المألوفة التي تتحدّث على ألسِنَةِ الحيوانات والطيور أو التي ينجزها الآخرون لاسيما الاطفال منهم .

ومن هذه الزاوية نجد ملايين الكتب والمجلاّت في شتى الاقطار المتقدمة بصورة خاصة تطفح بذلك بصورة عديمة الانقطاع كما نجد فريقاً من ألمع الكتاب انصرف كلياً وتخصص في أدب الاطفال وبهذا الجانب من جوانبه بالذات .

وقد أخذ بالتعاظم في السنوات القليلة الماضية بصورة خاصة الدور الايجابي الفعال الذي تؤديه القصص الخرافية غير الواقعية (العلمية وغير العلمية) في نشوء وتنمية وتطوير قدرات الطفل الخيالية وفي تربيته الاخلاقية والفنية الجمالية وفي صقل مشاعره وتوسيع معرفته وزيادة ثروته اللغوية والقصص الخيالية هذه يكتبها خبراء في الأدب وعلم النفس يتقنون فن الكتابة إلى الاطفال.

ويختارون موضوعات مثيرة يعرضونها بأسلوب بسيط في مستوى ثقافة الطفل. ومن هذه القصص قصص الخيال العلمي. وقد مرّ بنا ذكر بعضها عند التحدث عن أدباء قصص الخيال العلمي الفرنسيين.

وفي كتاب الف ليلة وليلة نمط طريف من هذا القصص المثير حبذا لو قام بعض المعنيين بأدب الأطفال بتبسيطه وتهذيبه (لأنّ بعضه مدوّن بلغة مبتذلة وبكلمات عامية).

- ٢ -

يؤدي اللعب (بجميع صوره وبخاصة الخيالي منه) دوراً تربوياً بالغ الأهمية في حياة الطفل الخيالية والفكرية وفي تكامل شخصيته وصقل مشاعره والى تعرفه على العالم المحيط به الاجتماعي والطبيعي على حدّ سواء. شريطة أن يحظى الطفل

برعاية وتوجيه الكبار بصورة عديمة الانقطاع وأن تتهيأ له جميع الإمكانيات المادية والثقافية الملائمة . ومن الجدير بالذكر هنا أنّ كثيراً من علماء النفس المعاصرين البارزين يؤكدون على أهمية لعبة الشطرنج للأطفال منذ سنّ مبكرة من ناحية فسحها المجال الواسع لتنمية خيال الطفل وتعويده على تركيز انتباهه وتعبئة جميع قدراته الذهنية وعلى الاستنباط أو الاستدلال وإيجاد البدائل المتعددة لحالات افتراضية كثيرة . وقد ثبت في ضوء الدراسات التجريبية والملاحظات الميدانية وفي مجرى الحياة اليومية المعتادة أنّ الطفل يكون أكثر جدية وتركيزاً واهتماماً اثناء اللعب : الخيالي منه بصورة خاصة . وأنّه من غير المبالغ فيه أن يقال أنّ اللعب هو النشاط الجدي الوحيد الذي يمارسه الطفل في مجرى حياته اليومية المعتادة وأنّه وسيلة تعرّفه الأساسية على البيئة المحيطة به الجغرافية والاجتماعية . كما أنّ اللعب هو المجال السايكولوجي الإيجابي الوحيد الذي يتيح الفرصة لنشوء ونمو وتطّور قدرات الطفل الخيالية منذ سنّ مبكرة وغزارة معرفته واثراء لغته . بالاضافة بالطبع إلى كونه أداة للتسلية وصقل المشاعر وتهذيب الاخلاق وغرس صفات المثابرة وتركيز الانتباه وبعث الثقة بالنفس .

ومن هذه الزاوية فإنّ اللعب بمقاييس التربية الحديثة ليس هو مناقضاً للجدّ أو أنّه نشاط عابث – كما يظن كثير من الناس دون وجه حق – .

- ٣ -

وما يصدق على اللعب والقصص الخرافية من حيث أهميتها البالغة في نشوء وتنمية وتطوير خيال الاطفال يصدق أيضاً - وإلى الحدّ الاكبر أحياناً - على أسئلة الاطفال وبخاصة عما يدور في أخيلتهم من اشخاص وحوادث وظواهر طبيعية واجتماعية . فلا بدّ - والحالة هذه - من تشجيعهم على ذلك ومراعاة مرحلة نضجهم الثقافي وتعويدهم على التوصل إلى اجابات معقولة ومقبولة واقعية وخيالية مع إيجاد بدائل متعددة اثناء محاولتهم حلّ قضايا يواجهونها أو يطرحها عليهم الكبار وأن يرتبط ذلك بمستوى نضجهم اللغوي من ناحية الاسلوب ومن حيث المفردات المستخدمة وأن يرمي في الاصل الى تنمية الخيال ورفعه الى مستوى عالٍ .

- ٤ -

لقد حظيت تعبيرات قدرات الطفل الخيالية في مجال الفنون الرفيعة وبخاصة الرسم بعناية الباحثين منذ القرن الماضي حيث جرت محاولات عديدة لدراستها دراسة علمية سايكولوجية نظرية وميدانية ولأغراض تربوية .

ومن هذه الزاوية نجد دراسة رسوم الاطفال للكشف عن أخيلتهم المعبّر عنها فيها تطغى على دراسة نشاطهم الفني في المحالات الأخرى . وذلك لأن رسوم الاطفال بنظرهم – وبنظرنا أيضاً – ذات أهمية تربوية وسايكولوجية كبيرة بأعتبارها دلائل واضحة على خصائص مرحلة النمو ،لعقلي لاسيا في مجال الخيال اثناء الطفولة .

وفي هذا الإطار يمكن تفسير جهود ركسي في ايطالية وهربرت ريد في انكلترا وفريز في فرنسة ولافيلد في الولايات المتحدة وفيكوتزكي في الاتحاد السوفيتي . ومع الأهمية البالغة لتلك الدراسات وبخاصة التي جرتْ منها في نهاية القرن التاسع عشر إلاّ أنّها كانت تجنح – دون سندٍ علمي بمقاييسنا الحديثة – نحو نقل أساليب الكبار من محترفي مهنة الرسم نقلاً ميكانيكياً إلى عالم الاطفال دون مراعاة مرحلة نموّهم العقلي والانفعالي والجسمي والاجتماعي وخصائصهم السايكولوجية المميزة من جهة ودون الكشف عن الجانب الخيالي فيها لتنميته ورفع مستواه من جهة أخرى . غير أنّ تقدم الدراسات السايكولوجية في بداية هذا القرن وبخاصة في المانيا بجهود كارل بوهلر وقرينته شارلوت (وابحاث منتسوري الأخيرة في ايطاليا ودراسات سوزان آزاك في انكلترا وابحاث كيزل في الولايات المتحدة) قد أدت جميعها – دون قصد – الى حدوث رد فعل عنيف في قضايا رسوم الاطفال

وسارت بها إلى الجهة المعاكسة كما أتضح ذلك مثلاً في عشرينيات هذا القرن في نزعة المربي النمساوي سيزاك الرامية الى ترك الطفل يرسم على سجيته وبمبادراته الفردية العفوية دون تدخّل أو توجيه يبديه الكبار المحيطون به لتتجلّى ذاتيته الخاصة العفوية . وبالشكل الذي يعبّر به هو نفسه عنها وذلك لإبعاد أيّ أثر خارجي عنه في رسومه . وقد أدّى هذا بشكله المتطرّف المبالغ فيه الى حدوث آثار سلبية ضارة في رسوم الاطفال الخيالية من الناحية التعبيرية . وهنا تبدو أهمية المواءمة بين التعبير الحرّ للاطفال في رسومهم وبين التوجيه الذي يبديه الكبار دون قسرٍ أو اكراه وفي ضوء استيعاب مراحل نموّهم السايكولوجي التي ساهم في بلورتها في الوقت الحاضر كلٌ من بياجيه عالم النفس السويسري وبروز في الولايات المتحدة وفيكوتزكي عالم النفس السوفيتي . وأن يؤكد المشرفون على تربيته دائماً وأبداً على الجانب الخيالي منها .

— ٥ —

ذلك ما يتصل بتعبيرات القدرات الخيالية عند الاطفال منذ سنّ مبكرة في قصصهم الخيالية وفي العابهم وفي اسئلتهم وفي رسومهم . أما ما يتصل بتعبيراتهم الخيالية في مجال الأدب فيمكننا أن نقول : إن مجال التعبير الأدبي يبدأ عند الطفل مبكراً أيضاً مع تعلّمه اللغة وذلك عبر الكلمات التي يبدأ بترديدها و «اللّعب»

بآستخدامها والاستمتاع بموسيقاها وجرْسها (بكسر الجيم وتسكين الراء) . ثم بعد ذلك وعلى أساسه عن طريق الجمل القصيرة والبسيطة التي يتعلّم النطق بها معبراً بها عن مشاعره واحاسيسه أو حالاته النفسية ونغماته الغنائية الايقاعية العفوية . وقد ثبت أنّه من المتعذر التمييز بشكل متبلور ومتحجر في هذه المرحلة المبكرة من حياة الطفل بين العناصر الغنائية والعناصر البطولية والعناصر الملحمية في خيال الطفل . يضاف الى ذلك صعوبة عزل قدرات الطفل الخيالية الأدبية عن قدراته الخيالية في المجالات الأخرى (الرسم مثلاً) فالطفل يرسم في الوقت الذي يغنّي فيه ويردّد الكلمات الرقيقة والقصص الخيالية البسيطة ذات العلاقة بما يرسم . ومن الجهة الثانية فإنّ قدرات الطفل الخيالية في مجال الغناء والموسيقى هي ذات أهمية كبيرة فلابدّ من رعايتها رعاية متواصلة . وهذا هو الذي أدى بنظرنا إلى أن تصبح قضية قدرات الطفل الإبداعية في مجال الموسيقى والغناء موضوع دراسة مستفيضة لدى كثير من المختصين في الدول المتقدمة المعاصرة فنشأت مراكز تربوية خاصة لهذا الغرض .

٦

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع أن نقول - من الناحية التاريخية - إن هناك علاقات وثيقة وآثاراً متبادلة بين مختلف اشكال تعبيرات قدرات الطفل الخيالية في مجال الفن : جنوح الطفل نحو

مختلف انواع الخيال الفني الجمالي أي أن الطفل يميل في مرحلة نموّه المبكرة نحو أكثر من جانب من جوانب الفن المعروفة . ولكنه – من الجهة الثانية – يجنح كلما تقدم في السن نحو شكل معيّن بالذات دون غيره . وهنا لا بدَّ من مراعاة ذلك وتهيئة أفضل الظروف لبلورته وتطويره : في الأسرة والمدرسة ووسائل الثقافة والأعلام : التلفزيون : الصحف : الاذاعة . . ومن المستحسن أن تقام في المنزل وفي الروضة – إن أمكن – معارض بسيطة لمنجزات الاطفال الفنية المتنوعة لاسيما الرسوم وفي الحقل التكنولوجي وأن يحاط الاطفال اثناء ذلك بالرعاية والتشجيع والاهتمام بشكل جماعي وفردي أيضاً . وهذا الاجراء التربوي الايجابي السليم يشجع الطفل على الاستمرار في بذل الجهود ويبعث ثقته بنفسه ويجعله متفائلاً في الحياة ويتيح له فرصة التعبير عن مكنونات نفسه وعن مطامحه ويجعله يشرح بلهجته الخاصة معروضاته للزائرين لأنّ في ذلك تدريباً لقدراته التعبيرية الأمر الذي يساعد على نموه اللغوي وبخاصة إذا بادر الكبار الى تصحيح أخطائه وتزويده بالكلمات الملائمة وتدريبه على النطق الصحيح بها . ومن المستحسن أيضاً عقد مباريات بين الاطفال في رسومهم والعابهم واعمالهم اليدوية وتشجيعهم جميعاً على المنافسة البريئة التي تعوّدهم أيضاً على العمل الجماعي والنظر الى الانجاز الشخصي في ضوء قرينته الاجتماعية واعتبار المشاركين في المباراة أعضاءاً في فريق واحد – كفريق لعبة كرة القدم – وأنّ فوز كلّ

منهم يقع ضمن فوز الفريق. أو بالعكس : فإنَّ فوز الفريق يتضمن فوز كلّ منهم : فلا احباط ولا سيطرة ولا تبجّح. يضاف إلى ذلك ولا يقلّ أثراً إيجابياً عنه أنّ الاشتراك في المباراة يتيح للطفل تقدير نفسه وتقدير الآخرين تقديراً موضوعياً لا تقديراً ذاتياً أنانياً.

ويشجعه أيضاً على الألتزام أو التقيد بالحكم الصادر عليه من غيره وإن كان لا يرتضيه لأول وهلة لأنّه يتنافى مع حكمه الذاتي المتيّسر. شريطة أن تعلن نتيجة المباراة في الملصقات الجدارية المدرسية وأثناء تجمّع الأطفال في المناسبات العامة وبخاصة عند تحية العلم أو في الصباح قبل دخول الصفوف.

٧

يحتل الخيال في المجال التكنولوجي (بمعناه البسيط وبمستواه الذي يتناسب مع مرحلة نمو الطفل) مركزاً مرموقاً في حياة الطفل الراهنة وفي حياته بالمجتمع الذي يعيش فيه في المدى الطويل. والخيال التكنولوجي هذا يعبّر عن نفسه بوضوح في العاب الطفل (منذ مرحلة الروضة بصورة خاصة) فلابدّ - والحالة هذه - من توفير الأدوات الملائمة لذلك في الروضة وفي الأسرة أيضاً وأن نشجع الطفل على فحصها وتحليلها وتركيبها مع التوجيه اللازم تفادياً لتكسيرها أو تعطيلها عن العمل. ومن هذه الناحية فإنّ

اشراف الكبار على نشاط الأطفال التكنولوجي كفيل بنظرنا بادامة الأدوات والاجهزة التكنولوجية والمحافظة على سلامتها. ويفضل - في هذه الحالة - تشجيع الألعاب التكنولوجية الجماعية التي يساهم فيها أكثر من طفل وأن نعوّد الأطفال على انجاز اعمال مفيدة - على القدر المستطاع - وأن نشجع هواياتهم التكنولوجية ونطورها ونوجهها.

ولتحقيق ذلك على الوجه الأفضل نقترح أن يقوم المشرفون على تربية الطفل (في المنزل والمدرسة وفي منظمة الطلائع) بشرح الأدوات التكنولوجية الجديدة التي يقدمونها للاطفال شرحاً وافياً مقروناً بتعليمهم كيفية استخدامها بالفعل لا بمجرد الكلام. ونود أن نشير في ختام هذا الجانب من جوانب الموضوع أنّ الدول المتقدمة المعاصرة تقيم في العادة متاحف خاصة لمنجزات الاطفال الفنية وتهيئ لهم صحافة خاصة ومسارح خاصة وموسوعات خاصة ودور نشر خاصة.

- ٨ -

لا شك في أن معرفة الكبار المشرفين على تربية الأطفال (في المنزل والمدرسة ومؤسسات ثقافة الاطفال) خصائص الطفل السايكولوجية معرفة سليمة هي قضية بالغة الأهمية من ناحية فهم طبيعة المشاكل التي تثيرها لهم من ناحية كفاءتهم في التعامل معهم

وتوجيه التوجيه السليم في سلوكه وفي تعلّمه على حدٍّ سواء.

وعلى هذا الاساس فإنّه من الأفضل – ونحن نسعى نحو تربية الخيال العلمي عند الطفل منذ سنٍّ مبكرة – أن نستثمر خصائصه السايكولوجية استثماراً معقولاً والى الحد الاقصى وبخاصة من ناحية تشجيع مبادراته الشخصية وتعليلاته الساذجة لكثير من الظواهر الطبيعية والاجتماعية لاسيما من ناحية العلاقة بين الاسباب ونتائجها : لأن تلك التعليلات الساذجة (والمضحكة أحياناً) ناجمة في الأصل من طبيعة خياله الذي يعزو – في سن مبكرة – صفات الأحياء الى كثير من الجمادات ولابدّ أيضاً من أن يأخذ الكبار المحيطون بالطفل أنّ الاطفال دائماً وأبداً في عملية نموّ متواصل من جميع النواحي : الجسيمة والعقلية والانفعالية والاجتماعية . وأن يفهموا أيضاً خصائص كلّ مرحلة من مراحل النموّ كي يقفوا من الطفل وفق مستلزمات خصائصه في تلك المرحلة ولا يطبقوا عليه وهو في الصف الرابع الابتدائي مثلاً مقاييس الطفل في الصف الأول أو خصائص الطفل في الصف السادس مع مراعاة الجوانب المشتركة بالطبع وقد ثبت بأجماع آراء علماء النفس المعاصرين أنّ الطفل يمرّ اثناء عملية نموّه العقلي بالذات بمراحل متعدّدة ومتعاقبة وإن اختلف هؤلاء المختصون في اسماء تلك المراحل وفي فترة كلّ منها .

ومن هذه الزاوية فإنّ الاطفال لا يختلفون فيما بينهم في بعض النواحي العقليّة (والانفعالية والجسمية أيضاً) وأنّما يختلف كل منهم

عن نفسه في مراحل نموّه المتعاقبة . وهذا يحصل بفعل عوامل كثيرة معقدة ومتشابكة سايكولوجية واجتماعية لا يعنينا أمر الدخول في تفاصيلها . وهي موضع دراسة تفصيلية تجريها الآن دار ثقافة الطفل في مشروعها الثقافي الطموح والبالغ الاهمية : «موسوعة الطفولة» التي نرجو أن ترى النور في اقرب وقت مستطاع . وقد ثبت في ضوء الدراسات السايكولوجية النظرية والملاحظات الميدانية وفي مجرى الحياة اليومية أنّ الاطفال حتى السنة الثانية من العمر تتغلب عندهم بافراطِ الجوانب الانفعالية . وهذا يبدو في ميلهم نحو تصديق جميع ما يسمعون . فلابدّ - والحالة هذه - من استثمار ذلك لأغراض تنمية الخيال العلمي عندهم . وهذا هو الذي يفسر لنا - من بين أمور كثيرة أخرى - اهتمام علماء نفس الاطفال البارزين المعاصرين في الدول المتقدمة بالذات بقدرات الطفل التخيلية التي درسوها دراسة مستفيضة من نواحيها المتعددة للكشف عن طبيعتها ولضمان تربية الخيال العلمي عند الطفل تربية سليمة منذ سنٍّ مبكرة : وقد ثبت لديهم أنّ خيال الطفل يجسّد نفسه في سنٍّ مبكّرة في قدرته على تكوين علاقات أو ارتباطات ذهنية جديدة بين الاشياء المألوفة على أساس خبرته السابقة : أي أنّ خيال الطفل في مرحلة مبكرة من حياته انعكاس ابداعي عن الواقع الذي يعيش فيه أو العالم المحيط به :

قدرته على أن يوجد صوراً ذهنية مختلفة أو انطباعات عن أشياء متباعدة ومبعثرة

كما ثبت أيضاً أنَّ خيال الطفل يبدأ ساذجاً وبسيطاً وطريفاً (بمقاييس الكبار) ثم يأخذ بالتعقيد رويداً رويدا . وبالارتفاع عن الواقع والاختلاف عنه ويمر بسلسلةٍ من المراحل الحولية حتى يصل الى أعلى مراتبه عند بلوغ مرحلة الرشد كما يبدو ذلك لدى كبار الفنانين والعلماء . وهذا يعني أنّ خيال الطفل يخضع لعملية نموّ وارتقاء بفعل عملية النموّ والارتقاء التي يمر بها الطفل في مجرى حياته وعلى أساسها . وتلعب اللغة دوراً بالغ الأهمية في هذا الشأن . ولهذا فإنَّ خيال الطفل يتسع اتساعاً كبيراً منذ السنة الثامنة من عمره بفعل تعلّمه اللغة المتحدث بها . ثم يتسع - بعد ذلك وعلى أساسه - باتساع مفرداته اللغوية وغزارة خبرته وتزايد معرفته وتعلّمه اللغة المدوّنة أو المكتوبة ولغة الادب (المجاز : الاستعارة . . الخ) .

وثبت كذلك أن خيال الطفل وإن بدا لأول وهلة كأنه أغزر من خيال الراشد إلاّ أن الأمر ليس كذلك - بعد التحليل الدقيق وفي المدى البعيد : - فخيال الطفل أفقر من خيال الراشد في محتواه وفي سعته وأكثر نمطية وأقل استقراراً . كما أنّ عناصره الإيجابية أقل بكثير من نظيره لدى الراشد أو من نظيره عند الطفل نفسه في مرحلة الرشد .

وهنا تبدو أهمية ملاحظة ذلك عند تربية الخيال العلمي عند الطفل وذلك بتوفير المستلزمات المادية الملائمة (اللعب العلمية : الأدوات الميكانيكية : الاجهزة العلمية غير المعقدة وما يجري مجراها) .

وجعل الطفل نفسه ينغمر فيها ويتعامل معها (ويعيشها) بتوجيه الكبار . مع توفير المجلات والكتب الملونة والملائمة والافلام وما هو على شاكلتها . وأن يتم التعاون وتبادل الخبرة في هذا الصدد بين الاسرة (لاسيما الأمّ) وبين المدرسة ووسائل الثقافة والاعلام وبخاصة دار ثقافة الاطفال التي تقوم بجهد فكري ملحوظ ومتنوع ومتطور في هذا الباب .

خلاصة ما ذكرنا

أولاً : يحتلّ أدب قصص الخيال العلمي مركزاً مرموقاً في المجتمع المتقدم الحديث .

ثانياً : يساهم في مجال أدب قصص الخيال العلمي فريق من ألمع الأدباء وأبرز علماء الطبيعة والرياضيات

ثالثاً : تتنوع وتتعدد أغراض أدب قصص الخيال العلمي

رابعاً : إنَّ مجتمعنا هنا في العراق وفي عموم الوطن العربي بحاجة ماسة الى هذا النمط الجديد من الأدب مترجماً عن اللغات الأجنبية ومستمداً من تراثنا الأدبي الزاخر لاسيما كتاب الف ليلة وليلة .

خامساً : من الضروري أن يتولى المعنيون بشؤون ثقافة الاطفال عندنا (في الأسرة وخارجها : المدرسة : وسائل الاعلام والنشر : دار ثقافة الاطفال : منظمة الطلائع) أمر العناية بتنمية الخيال العلمي عند الاطفال بمشاركة الاطفال أنفسهم وتوجيههم بالوسائل الثقافية المتاحة وفي مقدمتها .

أ : القصص الخيالية (ذات النزعة العلمية المبسّطة) التي تقوم بإعدادها فئة من الكتاب الذين يجيدون فن الكتابة الى الاطفال .

ب : الإصغاء الى أسئلة الاطفال واستفساراتهم وتوجيهها والتعاون معهم على ايجاد الإجابات المعقولة والمقبولة (والخيالية : الجمالية) التي تلائم مرحلة نمو الاطفال ومستواهم الثقافي .

ج : استثمار رسوم الاطفال الخيالية للتعبير عن حوادث خيالية ولتوضيح جوانب معينة من قصص خيالية - ذات نزعة علمية - يرويها لهم الكبار أو يقرأونها لهم أو يروي الاطفال انفسهم قصصاً بدائية مماثلة .

د : العمل بصورة مستمرة على زيادة ثروة الاطفال اللغوية بشتى الوسائل المتاحة مع تحبيب اللغة للاطفال واشراكهم ايجابياً في تعلّمها .

هـ : استثمار ميول الاطفال نحو اللعب لأغراض تنمية الخيال العلمي عندهم .

و : حث أولياء الأمور على اقتناء كتب الأطفال ومجلات الأطفال وتخصيص أماكن خاصة لها وأوقات معينة لقراءتها معهم وسماع تعليقاتهم عليها ومحاولة رفع خيالهم الى مستوى أعلى .

ز : استثمار جميع أوجه نشاط الاطفال المتدفق في المنزل وخارجه لغرض تنمية الخيال العلمي لديهم .

ح : قيام دار ثقافة الاطفال باقتناء نسخة باللغة الفرنسية - عن المستشار الثقافي في السفارة العراقية في باريس - من مؤلفات كاتب قصص الخيال العلمي عند الاطفال فيرن لاسيما كتابه أو

روايته التي ترجمت وعنوانها «ثمانمائة عصابة والبحر» وتكليف لجنة ممن يتقنون اللغة الفرنسية ومن المعنيين بالتربية وعلم النفس لتعريبه .

ض : تشجيع الراغبين في دراسة كتاب الف ليلة وليلة ممن يتقنون فن الكتابة الى الاطفال لاختيار ونشر بعض قصص هذا الكتاب الطريف .

ي : تكوين رابطة أو جمعية «أدب قصص الخيال العلمي عند الاطفال» من بين العاملين في ثقافة الاطفال شريطة أن يكون محور ذلك كلّه القصة التي يكتبها من يتقن فن الكتابة الى الاطفال كما ذكرت وأن تدور حوادثها حول الخيال العلمي . وأن تكون القصة قصيرة ذات حوادث مثيرة ومدهشة وفيها حركة مستمرة ومفاجئات وتنقّل مكانيّ وزمانيّ متواصل وان تكون شخصياتها من صغار الاطفال وأن يتخللها حوار وتبادل الراي ونوع من التزمت في المواقف وأن يكون أسلوب عرضها سهلاً تتخلله جمل قصيرة والفاظ مألوفة وجذابة ذات رنين كلغة الشعر تمازجها حركات اليد وقسمات الوجه ونبرات الاستحسان أو الاستهجان وأن يكون جوّ القصة ممتعاً وجذاباً ويكون المنظر المحيط بها زاهياً مطرزاً بالاوراد ومجاري الانهار وبالاشجار والطيور المغردة والحيوانات الأليفة والكتب والمجلات التي يهواها الاطفال بألوانها الزاهية وتتخللها الرسوم التوضيحية البسيطة والمعبرة والموضوعة

بهيئات وعلاقات غريبة أو غير مألوفة . وأن يبتعد كاتب القصة عن التعبير بمصطلحات مجردة ومفاهيم معقَّـدة بل يجسدها بسلوك وحركات رشيقة ومثيرة وغريبة لإثارة مشاعر الاطفال وشدهم الى حوادث القصة ومشاركتهم في حوادثها مشاركة فعلية بمشاعرهم وهم يشاهدونها معروضة في التلفزيون أو اثناء مايرويها لهم الكبار أو يقرأونها لهم شريطة أن يكون الاطفال في وضع مادي وسايكولوجي ملائم يشاهدون باثارةٍ ايجابية وبولع عارم محتويات القصة الراقصة المتحركة أبداً والمتبدلة الواقع والهيئات والازياء كأن تتحول بسهولة وسرعة العصافير الى انهار جارية متدفقة تتراقص فيها الأمواج والاسماك والقوارب التي يحلّ بعضها محلّ بعض بلمحة بصر وتتناثر في جنباتها الأطفال باهازيجهم وحركات أجسامهم الايقاعية وبملابسهم الزاهية المتبدلة أبداً والآخذ بعضها بخناق بعض فتتزاحم بالمناكب وتتدافع بالراح بحيث لا يتمالك الطفل الذي يقرأ القصة أو يشاهد حوادثها أو يصغي الى من يرويها أو يقرأها له من ان يشارك ايجابياً في حوادثها وكأنه من جملتها لا تحرف انتباهه عنها حركات الجالسين معه او أصواتهم إلاّ أن يكون الطفل بعيداً عنها بمشاعره وميوله رغم قربه الذي منها وهذه دون شك أمانٍ عزيز منالها وصعب تحقيقها في المدى القريب ولكن لا بدَّ من السعي لتحقيقها بتهيئة عناصرها البشرية أولاً وقبل كل شيء .

أهم المراجع

1: H. G. Wells: War of the Worlds.

2: Brad Bury: Martian Chronicles.

3: Brad Bury: The Dan delion Win e.

4: Brad Bury: Fahnenneit 451

5: Clar.ke: The Deep Range.

6: Clar ke: The Full of Moon dust.

7: Clar.ke: The San-ds of Mars.

8: Clar ke: The Dolphin gelumd 2001.

9: Clar ke: A Space Odyssey.

10: Clar ke: The Fommtains of Panticles.

تصدر عن قسم البحوث والنشر سلسلة بعنوان مكتبتنا

صدر منها

١ . اليس في بلاد العجائب

تأليف : لويس كارول

ترجمة : فوزي نعمان ابو شقرا

٢ . مدرسة العصافير

نصوص مسرحية

ترجمة : سليم الجزائري

٣ . الفاكهة الطيبة (مسرحية)

ترجمة : عبد الله جواد

يصدر منها قريباً :

الفصول الاربعة (مسرحيه)

ترجمة : نعيم بدوي

عبر المرآة

تأليف : لويس كارول

سلسلة دراسات

صدر منها :

١ . التلفزيون والاطفال

تأليف : قاسم حسين صالح

٢ . مقدمة في كتب الاطفال

اعداد : مختلفون

٣ . الطفل في تشريعات الثورة

اعداد : عبد الجبار داود البصري

يصدر منها قريباً :

دلالة المكان في قصص الاطفال

تأليف : ياسين النصير

تصميم الغلاف : احلام عباس
الاخراج الفني : طلال سعيد

السعر ٢٥٠ فلس

رقم الايداع في المكتبة الوطنية (٩٢١) لسنة ١٩٨٥

مطابع ثنيان بغداد (٤١٦٣١٥٣)